تربية المجتمع المسلم بالآداب الربانية المثلى كما تجسدها

سورة الحجرات

دراسة موضوعية تحليلية

الأستاذ الدكتور

جودة محمد أبو اليزيد المهدى

أستاذ التفسير وعلوم القرآن الكريم
عميد كلية القرآن الكريم بطنطا
عضو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

الطبعة الثانية

١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذى امتن على أمة الإسلام بأعظم رسول، وهداها بخير كتاب لتنهل من نور ربها بالسير على خطى نبيها ﷺ زاد الهداية والخيرية فى الدنيا ويوم المآب.

والصلاة والسلام على النور الوضاء داعية الهدى والسراج الوهاب أشرف المرسلين سيدنا محمد بن عبد الله مربى الإنسانية ومعلم البشريةوقائد المسيرة الربانية على طريق الله المستقيم فأنار الله تعالى به الظلمة وكشف الغمة وهدى الأمة وتركها على المحجة البيضاء. وترك فيها ما إن تمسكت به لن تضل بعده ولن تعرف الشقاء، القرآن العظيم وسنته الغراء، لذا اقترن ذكره ﷺ وآله وسلم بذكر الكتاب المبين فى معرض المنة والتبيين. فقال تعالى وهو أصدق القائلين:

«قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين. يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم»[1].

أما بعد:

فإن عطاء الربوبية المنعم به على الخليقة من فيض الرحانية الإلهية

---

(١) سورة المائدة: ١٥ — ١٦

لا يقادر لمخلوق قدره ، ولا يحاط المحدث بداه ، لأنه عطاء من لا يحد إنعامه ولا يقادر إحسانه ، قرن عطاءه بهدايته كما قال عز من قائل «قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى»(١) ، أى أعطى كل شيء من الأشياء صورته وشكله اللائق بما نيط به من الخواص والمنافع ، كما أعطى مخلوقاته كل شيء تحتاج هى إليه وترتفق به ، ثم هدى ذلك المخلوق إلى طريق الانتفاع والارتفاق بما أعطاه ، وعرف كيف يتوصل إلى بقائه وكماله إما اختياراً أو طبعاً(٢).

ومن رحمته — عز وجل — أن هدانا بالقرآن الكريم إلى أقوم سبيل كما قال سبحانه «إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم . . . »(٣) . أى للطريقة التى هى أقوم الملل والشرائع والطرق(٤) وقد عرفنا رسولنا العظيم صلوات الله وسلامه عليه بفضل هذا الذكر الحكيم قائلا :

«إن هذا القرآن مأدبة الله ، فتعلموا من مأدبته ما استطعتم . إن هذا القرآن هو حبل الله ، والنور المبين ، والشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن اتبعه ، لا يعوج فيقوم ، ولا يزيغ فيستعتب ، ولا تنقضى عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد ، فاتلوه ، فإن الله تعالى يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات ، أما إنى لا أقول «الم» حرف ، ولكن : ألف ، ولام ، وميم ، ولا ألفين أحدكم واضعاً إحدى رجليه يدع أن يقرأ سورة

---

(١) سورة طه / ٥٠

(٢) انظر : تفسير : إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم للإمام أبى السعود العمادى ٣/٢٠٨

(٣) سورة الاسراء / ٩

(٤) انظر : تفسير الامام فخر الدين الرازى ٢٠/١٦٢

البقرة ، فإن الشيطان يفر من البيت الذي يقرأ فيه سوره البقرة، وإن أصفر البيوت لجوف أصفر من كتاب الله »(١)

فما أحرانا أمة القرآن بأن ننهل من أدب القرآن ونتأدب بآدابه ونقتات من هديه ونتربى بتربيته، إذ هو حبل الله المتين والنور المبين والعصمة لمن تمسك به الهدى إلى الصراط المستقيم .

ولقد طوفت فى رياض القرآن الكريم مستجليا روعة آدابه الربانية المثلى فوجدتها تشع من كل جانب ، وتتلألأ بروقها فى شتى سوره .

بيد أن سورة فى صدارة سور المفصل قد اجتذبتنى إلى روضها الأنف وألفت إلى يجنى من ثمارها اليانعة فإذا بروح ريحانها يأخذ بالروح إلى الأفق الأعلى النورانى، وإذا بشذى روضها يروض القلب بالتقوى فتسمو النفس إلى أوج صفائها بالتقويم الربانى ، فتلكم الآداب المثلى الصادرة من حضرة الربوبية لصلاح النفس الإنسانية لا توجد إلا فى رياض التنزيل ، وهذه المبادىء التربوية العظمى لا تنال إلا من فيض المن الإلهى لرفع ذاتية الإنسان من أسفل سافلين إلى أحسن تقويم . إنه تقويم أحكم الحاكمين .

ألا فلتهرع النفوس المعذبة إلى ساحة التربية القرآنية لتقتات هداها وترتشف قوام سعادتها فى العاجلة والعقبى. فما أحلى نداء القرآن وهو يخاطب ضمائر المؤمنين بأرفع شعار « يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم » ليحيي فيهم روعة الأخذ بمنهج الله

---

(١) رواه الحاكم فى مستدركه (١/٥٥٥) والبيهقى فى (شعب الإيمان) وابن أبى شيبة وغيرهم عن الامام ابن مسعود رضى الله تعالى عنه (أنظر كنز العمال ١/٥٢٦) .

ومن حاد بسلوكه خطوة عن منهج الله ما أشقاه، ومن سار على صراط الله المستقيم ما أتقاه، وفى التقوى عز الكرامة وسعادة التكريم «إن أكرمكم عند الله أتقاكم»، وما أجل الحفاظ على أمر الله ومراعاة حقوقه!!
وفى سورة «الحجرات» تجسيد نورانى لمنهج الله الذى يجب على المؤمن التزامه، وتعريف بحقوقه التى يحق على المؤمن رعايتها، ووقوف على المبادىء والآداب التى يتحتم التمسك بها لبناء مجتمع مسلم راشد قرآنى المنهج محمدى السلوك .

أقدم هذه الدراسة للمجتمع الإيمانى من مأدبة القرآن العظيم مؤملا فى الله عز وجل أن يحقق فينا ما تبرزه من مبادىء وآداب لنسير على طريق الله وعلى هدى رسوله العظيم سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه حق قدره ومقداره العظيم .

دكتور / جوده محمد أبواليزيد المهدى

﴿ سورة الحجرات ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله
إن الله سميع عليم (١) يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق
صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط
أعمالكم وأنتم لا تشعرون (٢) إن الذين يغضون أصواتهم عند
رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة
وأجر عظيم (٣) إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم
لا يعقلون (٤) ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم
والله غفور رحيم (٥) يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ
فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين (٦)
واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم
ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم
الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون (٧) فضلا من
الله ونعمة والله عليم حكيم (٨) وإن طائفتان من المؤمنين
اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي
تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل

وَأَقْسِطُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ
أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ
قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ
أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ
ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (١١) يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا۟
وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا
فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (١٢) يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ
إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟
إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ
ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ
وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ
لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلصَّٰدِقُونَ (١٥) قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (١٦) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟
قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ
إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (١٧) إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ
بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨)

بين يدى التفسير

تقـــديم وتعـــريف

هذه السورة الكريمة مدنية بالإجماع الا الآية «الثالثة عشرة» وهى قوله تعالى: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ...»[1] إلخ فإنها نزلت بمكة يوم الفتح ومن ثم تأخذ حكم المدنى على القول الأشهر وهو أن المكى ما نزل بعد الهجرة سواء نزل بالمدينة أم بمكة علم الفتح أو علم حجة الوداع أم بسفر من الأسفار[2] .

وترتيب هذه الصورة فى المصحف الشريف رقم «٤٩» وهى أول القسم المسمى بالمفصل فى القرآن الكريم[3] ، والمفصل هو ما ولى المثانى من قصار السور ، وقد سمى بذلك لكثرة الفصل بين سوره بالبسملة .

وفى فضل هذا القسم من القرآن الكريم أخرج الدارمى والطبرانى والبيهقى عن الإمام ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال : «إن لكل شىء لباباً وإن لباب القرآن المفصل»[4] .

---

(١) هذا الاستثناء جار على القول بتعريف المكى بأنه ما نزل بمكة مطلقا والمدنى ما نزل بالمدينة كذلك .

(٢) أنظر الاتقان للإمام السيوطى : بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ٤٩،٣٣/١

(٣) قسم علماء التنزيل سور القرآن إلى أقسام أربعة : القسم الأول : السبع الطوال أولها البقرة وآخرها براءة ، والثانى : المئون ، وهى ما وليها مما زاد على مائة آية أو تقاربها والثالث : المثانى ، وهى ما ولى المئين ، لانها ثنتها — أى كانت بعدها — والرابع : المفصل أنظر الاتقان ١٧٩/١ — ١٨٠ .

(٤) أنظر الدر المنثور للإمام السيوطى ١٠١/٦ .

وقد سميت هذه السورة الكريمة بالحجرات لما ورد فيها من ذكر الحجرات التي هي بيوت نساء النبي ﷺ بصدد النهي عن ندائه ﷺ من ورائها كما كان يفعل أجلاف العرب ، فلانفراد السورة بالإرشاد إلى الأدب في ذلك كانت التسمية .

ومن المقرر عند علماء التنزيل أن أسماء السور ثابتة بالتوقيف من الأحاديث والآثار ولا اجتهاد فيها .

ومن ثم ترمز التسمية التوقيفية إلى المحور الموضوعي للسورة ، وهو الذي سنقف عليه بعد .

ومن الحقائق العددية المتعلقة بهذه السورة الكريمة أن عدد آياتها ثمان عشرة وعدد كلماتها ثلاثمائة وثلاث وأربعون ، وعدد حروفها ألف وأربعمائة وأربع وسبعون ، ومجموع فواصل آياتها (من)(١) .

° ° °

• عرض موضوعي لمقاصد وأهداف السورة الكريمة •

حقيقة ثابتة مؤكدة في ميدان الدراسات القرآنية . أن لكل سورة في التنزيل وحدة موضوعية سارية في أجزائها ، تنتظم مقاصدها وأغراضها العامة والخاصة ، وتربط بين موضوعاتها المختلفة برباط متين يحقق الهدف الرئيسي منها .

وباستعراض الجانب الموضوعي لسورة الحجرات ، نجد أنها اشتملت

---

(١) أنظر بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز لمجد الدين الفيروز آبادي ١ : ٤٢٥ .

على جملة من الموضوعات الرئيسية والفرعية تنتظم فى سلكها نخبة من المبادىء والآداب وتتضمن طائفة من الأوامر والنواهى المتعلقة بذلك .

فالآية الكريمة الأولى : قد صدرت بنداء للمؤمنين وتضمنت نهيهم عن التقديم بين يدى الله ورسوله كما تضمنت أمرهم بتقوى الله وأنه سميع لأقوالهم عليم بأفعالهم .

والآية الثانية تضمنت نهيين للمؤمنين : أولهما : عن رفع أصواتهم فوق صوت النبى ﷺ ، والثانى : عن الجهر له بالقول كما يجهر بعضهم لبعض ، وبينت مغبة عدم الانتهاء عن ذينك الأمرين وهى إحباط العمل من حيث لا يشعر صاحبه .

ثم بينت الآية الثالثة : حال أهل الأدب مع سيدنا رسول الله ﷺ : الغاضين أصواتهم فى حضرته ، فبينت إخلاص قلوبهم للتقوى ، وأثبتت لهم الوعد بالمغفرة والأجر العظيم .

ثم نددت الآية الرابعة بمن لا يلتزمون الأدب معه ﷺ جهلا بمقامه السامى وهم الذين ينادونه من وراء الحجرات .

وتبعتها الآية الخامسة بإرشادهم إلى الصبر حتى يخرج النبى ﷺ إليهم فى ذلك الخير لهم والغفران والرحمة .

وأما الآية السادسة : فقد أرشدت المؤمنين إلى مبدأ التبين والتثبت من نبأ الفاسق حتى لا يظلم بذلك النبأ قوم بجهالة فيفضى الخطأ إلى الندم المحقـــق .

ثم بينت الآية السابعة : إعلام المؤمنين المعاصرين لسيدنا رسول الله ﷺ أن وجوده ﷺ فيهم مستلزم لإعلام الله تعالى إياه بحقيقة ما ينبئونه به ،

وفى ذلك زجر لهم عن إخباره بخلاف الواقع حيث يترتب على هذا الأخبار إثمهم بتسببهم فى مقتضاه من الظلم، ثم خاطب الله سبحانه الكاملين فى الإيمان ممتنا عليهم بعظائم أنعمه وهى تحبيب الإيمان إليهم وتزيينه فى قلوبهم وتكريه أضداده من الكفر والفسوق والعصيان ، ومن ثم تحرز هؤلاء المؤمنون الراشدون عما وقع فيه غيرهم من الكذب على رسول الله ﷺ .

ثم جاءت الآية الثامنة : منبئة أن حيازة المؤمنين الراشدين لهذه الفضائل المثلى إنما هى تفضل من الله تعالى وإنعام عليهم ، والله سبحانه عليم بهم وحكيم فى إنعامه عليهم بذلك .

وأما الآية التاسعة : فقد بينت أحكام البغاة وما ينبغى إزاء الطائفتين المؤمنتين المقتتلتين من الصلح بينهما ثم قتال الباغية منهما حتى ترجع إلى حكم الله ، ومن الإصلاح بينهما بالعدل بعد الفيئة ، ثم ختمت بالأمر بالعدل فى كل الأمور والترغيب فيه .

ثم جاءت الآية العاشرة : مقررة لمبدأ الأخوة فى الإيمان ، وأن هذه الأخوة موجبة للإصلاح بين الأخوين ، وختمت بالأمر بتقوى الله تعالى لاستجلاب رحمته عز وجل .

وفى الآية الحادية عشرة : نهى الله سبحانه المؤمنين عن سخرية بعضهم ببعض كما نهى نساء المؤمنين أيضا أن يسخر بعضهن ببعض ، كذلك نهى سبحانه عن اللمز والتنابز بالألقاب وذم اجتماع الفسق — بما ذكر — مع الإيمان ، وفى ختامها : أنذر من لم يتب عن ذلك بتعرضه للعذاب لاتصافه بالظلم .

ثم فى الآية الكريمة الثانية عشرة : أمر سبحانه المؤمنين باجتناب

كثير من الظن حيث أن بعض الظن إثم ، كما نهى سبحانه فى هذه الآية الكريمة عن التجسس والغيبة ، وقد مثل فيها لما يناله المغتاب من عرض من إغتابه على أفحش وجه ليجتنب أصلا . ثم ختمت بالأمر بتقوى الله تعالى . فهو للتواب الرحيم لمن اتقى واجتنب ما نهى عنه .

ثم وجه سبحانه وتعالى — فى الآية الكريمة الثالثة عشرة — الخطاب إلى الناس جميعا مبينا خلقهم قاطبة من أصل سواء مما يدفع التفاخر بالأحساب والأنساب ، ومبينا علة جعلهم شعوبا وقبائل ، وهى التعارف وتواصل الأرحام ، ثم مبينا أساس التفاضل بينهم عند الله تعالى وهو التقوى ، (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) .

ثم ختمها سبحانه بتأكيد كونه عليما بعباده وأعمالهم . خبيرا ببواطن أحوالهم .

ثم بين الحق تعالى — فى الآية الكريمة الرابعة عشرة — حال طائفة من الأعراب ، أظهرت الإسلام وإفتقدت قلوبها الإيمان والإخلاص ، فامتنت على النبى ﷺ بما لم تحققه من الإيمان . فأمر الله تعالى رسوله الأكرم ﷺ أن يكشف حقيقتها ، وأن ينفى إتصافها بالإيمان ، وأن يبين لهؤلاء أن من يطع الله ورسوله بالإخلاص وترك النفاق لاينقصه من أجر عمله شيئا . وأنه تعالى غفور لما فرط من المطيعين ، رحيم بالتفضل عليهم بإحسانه .

وفى الآية الكريمة الخامسة عشرة : وضع سبحانه المقياس الحقيقى للإيمان الصادق ، فبين أن المؤمنين على الحقيقة هم من آمنوا بالله ورسوله

ثم لم يقع ريب أو شك فى إيمانهم . وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله . أولئك المتصفون بهذه الأوصاف هم وحدهم الصادقون مع مع الله فى إيمانهم .

وبعد تبيان الصورة الحقيقية للإيمان الصادق ، توجه الخطاب فى الآية السادسة عشرة — بتوسيط الرسول صلى الله عليه وسلم — بينه تعالى وبين أدعياء الإيمان ، بالاستفهام التوبيخى لهم : أتخبرون الله تعالى بقولكم آمنا وهو العليم بما فى السموات وما فى الأرض وبكل شىء لا تخفى عليه خافية ؟؟

ثم يقول الله تعالى لرسوله الأكرم ﷺ : إن هؤلاء يعدون إسلامهم عليك منة فقل لهم : لا تمنوا على بإسلامكم فإن ، كنتم صادقين فى دعواكم الإيمان فإن المنة تكون لله عليكم . فهو الذى بين لكم ودلكم على طريق الإيمان .

ثم كانت الآية الكريمة الخاتمة لهذه السورة الجامعة : مؤكدة نفاذ علمه تعالى وشموله لكل ما غاب فى السموات وفى الأرض ، وأنه تعالى بصير بعمل العبد سره وجهره .

فسبحانه سبحانه من إله عليم خبير سميع بصير حكيم قدير .

* * *

من هذا العرض الإجمالى لما تضمنته السورة الكريمة من موضوعات رئيسية وفرعية انتظمت فى آياتها البينات : نستطيع أن نستخلص أولا : —

الهدف الرئيسي والمحور الموضوعي للسورة الكريمة :

فنجد هذا الهدف الذي ترمي إليه سورة الحجرات والذي تتمثل فيه وحدتها الموضوعية هو : تربية المجتمع المسلم بالمبادىء الإيمانية المثلى والآداب الربانية الرفيعة .

وحول هذا الهدف الجامع : تدور عدة موضوعات تنبثق منها المقاصد الرئيسية والفرعية المحققة لهذا الهدف ، والموصلة إليه ، متضمنة للأوامر والنواهي ، والتوجيهات الربانية المرشدة ، والمعالم السلوكية القرآنية المضيئة الناهضة بالمجتمع الإسلامي إلى ذروة الكمال والخيرية والفلاح ، إذا ما التزم بها واسترشد بهداها إلى الصراط المستقيم .

فأما الموضوعات الرئيسية التي تضمنتها السورة الكريمة حول هدفها الجامع فهي :

١ — الإيمان والإسلام : في الآيات : الأولى والثانية والسادسة والسابعة والتاسعة والعاشرة والحادية عشرة والثانية عشرة والرابعة عشرة والخامسة عشرة والسادسة عشرة والسابعة عشرة .

٢ — الالتزام المطلق بحكم الله ورسوله في جميع الأمور . في الآيتين : الأولى والرابعة عشرة.

٣ — تقوى الله تعالى : في الآيات : الأولى والثالثة والعاشرة والثانية عشرة والثالثة عشرة .

٤ — علاقة المؤمن بربه سبحانه . في الآيات . الأولى والسابعة والرابعة عشرة والخامسة عشرة وباقي الآيات التي ذكر فيها الإيمان والتقوى .

٥ — علاقة المؤمن برسوله صلى الله عليه وسلم : فى الآيات : من الآية الأولى إلى الخامسة ثم السابعة والرابعة عشرة والخامسة عشرة والسابعة عشرة.

٦ — علاقة المؤمن بإخوته فى المجتمع الإيمانى : فى الآيات : السادسة والسابعة والتاسعة والعاشرة والحادية عشرة والثانية عشرة والثالثة عشرة.

٧ — أحكام معاملة البغاة : فى الآيتين الكريمتين : التاسعة والعاشرة.

٨ — تقرير مبدأ المساواة ، ووضع أساس التفاضل فى المجتمع الإسلامى: فى الآية الثالثة عشرة.

٩ — الرقابة الإلهية على عمل العبد سره وجهره : فى الآيات الأولى ، والثامنة والثالثة عشرة والرابعة عشرة والسادسة عشرة والثامنة عشرة.

تلك هى رءوس الموضوعات التى عالجتها السورة الكريمة، والتى تفرعت منها شعب وفروع تكاملت فى إحراز الهدف الرئيسى منها ، وهو ما يمكن أن يطلق عليه :

« بناء المجتمع الراشد فى الاسلام »(١)

وذلك ما يوحيه منطوق ختام الآية الكريمة السابقة : « .. أولئك هم الراشدون » فالمسند إليه فى هذه الجملة الشريفة هم من سبق ذكرهم ممن حبب الله إليهم الإيمان وزينه فى قلوبهم ، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان .

ومن إشعاع الهدى القرآنى فى سورة « الحجرات » نتعرف معالم بناء المجتمع الإسلامى الراشد وتتمثل معالم هذا البناء فى :

(ا) الجانب العقدى الإيمانى .

(ب) الجانب التشريعى الإسلامى .

(ج) الجانب الخلقى الإحسانى .

وهذه الجوانب الثلاثة بجملتها يمكن تصنيف مضامين السورة الكريمة وموضوعاتها بأسرها وفقاً لها ، فيدخل تحت كل منها ما يدخل فى دائرته حتى تستوعب هـــذه الجوانب كل مفرداتها الموضوعية ومضامينها التفصيلية .

بيد أننا — بعد إبراز الهدف الجامع للسورة الكريمة وعرض موضوعاتها الرئيسية — نؤثر تصنيف المقاصد الأصلية والفرعية الموصلة للهدف الأساسى حسب جهاتها الموضوعية الممثلة فى العلائق الثلاثة السابق

---

(١) يوضح ذلك أن هذه السورة الكريمة مدنية ، والقرآن المدنى يعالج فى جل موضوعاته : الأحكام التشريعية والمبادىء والآداب اللازمة لبناء المجتمع الاسلامى .

ذكرها فى بيان موضوعات السورة . حيث أن كل نوع من هذه العلائق يقوم على جملة من الركائز والدعائم المتمثلة فى الأوامر والنواهى(١) والمبادىء والمقاييس الإيمانية .

وقد آثرنا هذا التصنيف الموضوعى للمقاصد على تصنيفها بحسب الجوانب العقدية والتشريعية والخلقية ، لتحاشى التداخل الموضوعى الذى يعترى تلك الجوانب .

فبالنظرة الموضوعية لمقاصد السورة الكريمة : نجد أنها تدور حول محاور ثلاثة لتحقيق ـ ما تهدف إليه وهو : تربية المجتمع المسلم بالمبادىء الإيمانية المثل والآداب الربانية الرفيعة ، وهذه المحاور هى :

١ ـ علاقة المؤمن بربه سبحانه وتعالى .

٢ ـ علاقة المؤمن بالرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم .

٣ ـ علاقة المؤمن بمجتمعه الإيمانى .

فأما علاقة المؤمن بربه عز وجل : فقد أوضحت السورة الكريمة الأسس والمبادىء التى تقوم عليها وتتمثل فيما يلى :

أولا : الإيمان الصادق بالله تعالى(٢) : فهو الأساس المتين الذى يقوم

---

(١) تشتمل سورة الحجرات على عشر صيغ نهى ، وعلى خمس عشرة صيغة أمر صريحة .

(٢) المراد بصدق الايمان الذى استهدفته السورة الكريمة : خلوه من الشك والارتياب وارتقاء الايمان إلى درجة اليقين الذى لا ريب فيه ، وقد بين الحق تعالى ذلك فى السورة الكريمة بقوله سبحانه : « إنما المؤمنون بالله ورسوله ثم لم يرتابوا . . . » الآية/١٥ .

عليه البناء ، وتنتظم اللبنات ويرتفع الصرح شامخا . ولذلك صدرت السورة الكريمة بهذا النداء الإيماني الذي ذكر خلالها خمس مرات (يا أيها الذين آمنوا . . .) وذلك لترتب الأوامر والنواهي في الآيات المصدرة به على وصف الإيمان . ولعظم نعمة الإيمان سجلت السورة الكريمة امتنان الحق تعالى على عباده المؤمنين بتحبيب الإيمان إليهم وتزيينه في قلوبهم وتكريه أضداده فقال سبحانه « . . ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان ، أولئك هم الراشدون فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم » .

وقد عالجت السورة الكريمة قضية الإيمان والإسلام وبيان حقيقة العلاقة بينهما ، وذلك في قوله تعالى : « قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ، وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا إن الله غفور رحيم »(١) . ولا ريب في أن الإيمان هو المقصد الرئيسي الذي تنبني عليه سائر المقاصد في السورة الكريمة كما قدمنا ، ومن ثم فإن كل ما استهدفته سورة الحجرات هو إرساء المبادىء الإيمانية المثلى في المجتمع الإسلامي ، ليرتفع بناؤه ولواؤه من قاعدة إيمانية راسخة فيواطىء الظاهر الباطن ولا يناقض المظهر المخبر كحال الأعراب الذين تحدثت عنهم السورة الكريمة .

ثانيا : الإلتزام الكامل بشرع الله تعالى وحكمه وعدم القطع في أمر من الأمور الدينية — أو الدنيوية إلا في دائرة ما شرعه الله تعالى ، حتى تصبح حياة المؤمن كلها حياة شرعية ، سواء في نطاق الاعتقاد

---

(١) الآية ١٤ .

أو العبادات أو العادات . فلا يشذ سلوك المؤمن عن جادة الشريعة الإلهية بأى مظهر من مظاهره .

وهذا المقصد الإيمانى الأعظم هو الأساس المبنى فوق قاعدة الإيمان وهو جماع كل مقاصد الدين وحجر زاويته وبيت قصيده ، ولذا كان أول نهى فى السورة الكريمة عن تعديه و إهماله وتجاهله وعدم الاعتصام به « يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله » .

ثالثا : تقوى الله سبحانه وتعالى : بامتثال أوامره واجتناب نواهيه والتورع عن محارمه وخشيته ومراقبته تعالى فى جميع الأمور ، فيحفظ العبد جوارحه من المخالفات ويحفظ قلبه من المساوىء والهفوات ، ويحفظ سره من أسر العادات والوقوف مع المحسوسات . ويعكف على إصلاح قلبه وباطنه من علل القلب وأمراض النفس ، حتى يشرق قلبه بالتقوى ويصبح عبداً ربانيا ، يرى بنور الله ، ويسمع ويبصر بالله ، ويتحقق له مقام الإحسان الذى عرفه سيدنا رسول الله ﷺ بقوله : « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[1] .

وقد تكرر الأمر بالتقوى ثلاث مرات فى السورة الكريمة لعظم شأن التقوى ولكونها ذروة كمالات الإسلام ولب حقيقة الإيمان ، ومنطلق التحقق بمقام الإحسان . ومن ثم كانت التقوى هى المقياس القرآنى لمنزلة العبد عند ربه ، ومعيار التفاضل بين أجناس البشر ونوعياتهم ، ومعقد التكريم لدى رب العرش الكريم القائل عز من قائل : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم »[2] .

---

(١) أنظر صحيح البخارى ١٢/١ ط محمد عبد اللطيف حجازى .

(٢) سورة الحجرات ١٣

رابعا : طاعة الله تعالى فى كل ما يأمر به من التوحيد ومترتباته من التكاليف الشرعية مع إخلاص القلب لله تعالى وطهارته من النفاق والرياء لينال العبد من ربه أجره على عمله كاملا غير منقوص وعطاء غير مجذوذ « وإن تطيعوا الله ورسوله لايلتكم من أعمالكم شيئا(١) » . فالمراد بالطاعة هنا ، طاعة الإخلاص والانقياد لله تعالى بالكلية .

خامسا : الجهاد بالمال والنفس فى سبيل الله . وهذه الركيزة الإيمانية شاملة للعبادات المالية والبدنية بأسرها ، ولذا اعتبرت تحقيقا فعليا للإيمان الصادق ، ومن ثم قصر المؤمنون المستجمعون لحقيقة الإيمان على من سلم إيمانهم من الارتياب ، وأحرزوا ركيزة الجهاد ، فقال عز من قائل: « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون »(٢) .

ففى هذه الآية الكريمة المقياس القرآنى الإيمانى الحصرى ، التى يقاس به الإيمان ، ويتبين صدقه من زيفه ، وهو أحد المقاييس الإيمانية فى القرآن الكريم(٣) ، تلك هى الركائز الأساسية التى تقوم عليها علاقة المؤمن بربه كما تتجلى فى هذه السورة الكريمة ، وسيأتى لها مزيد تبيان فى الجانب التحليلى من التفسير .

وأما عن المحور الثانى من المحاور التى تدور حولها مقاصد السورة الكريمة وهو : —

---

(١) سورة الحجرات ١٤

(٢) سورة الحجرات / ١٥

(٣) أنظر مقاييس الإيمان فى القرآن الكريم فى كتابنا « قصد السبيل فى التفسير الموضوعى التنزيل » ج١ ص١٨٩ — ص٢١٢ .

علاقة المؤمن بالرسول الأعظم ﷺ :

فإنها ترتكز على جملة من الركائز تتمثل فيما يلى : —

أولا : صدق الإيمان به ﷺ دونما ارتياب أو شك فى صحة نبوته ورسالته ﷺ ، واعتبار هذا الإيمان جزءا لا يتجزأ من الإيمان بالله تعالى، فلا يصدق الإيمان به سبحانه إلا بالإيمان بالنبى ﷺ ، وبما جاء به عن ربه عز وجل ، ومن ثم كانت الشهادة برسالته ﷺ قرينة للشهادة بالوحدانية لله تعالى وكان الرسول ﷺ معطوفا على الحق تبارك وتعالى فى الأوامر الإيمانية كما فى قوله تعالى « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه . . » (١)، ومن ثم أيضا : عطف الرسول ﷺ على الله سبحانه وتعالى فى المقياس الإيمانى الذى تضمنته سورة الحجرات فى قوله تعالى : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا » .

ثانيا : الالتزام الكامل والمطلق بما جاء به ﷺ ، وعدم الافتيات عليه ، أو التقدم عليه بالقول أو بالفعل ، كما وجه إليه صدر السورة الكريمة : « يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله . . . . . » .

فهذا المقصد الأسمى من مقاصد السورة الكريمة يعنى التبعية الكاملة لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كل الأمور ، وتحكيمه صلى الله عليه وسلم فى كل ما اختلف فيه عملا بقوله تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما (٢) » .

---

(١) سورة الحديد /٧

(٢) سورة النساء /٦٥

فالتزام الكامل بما جاء به الرسل ﷺ : هو الترجمة السلوكية العملية للإيمان به ، والتبعية الكاملة له ﷺ ، هى المقياس الحقيقى لحب الله تعالى كما قال جل شأنه : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم »(١) .

ومن ثم فإن مبدأ الالتزام بسنة النبى ﷺ هو المبدأ الجامع للمبادىء الايمانية وهذا سر تصدير سورة الحجرات به .

ثالثا : الطاعة المطلقة للرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم .

فقد قرن الله تعالى طاعته صلى الله عليه وسلم بطاعته تعالى فى مواطن عديدة فى القرآن الكريم ، ومنها فى سورة الحجرات : قوله تعالى « وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا . . »(٢) . بل لقد جعل الحق تعالى طاعة الرسول الكريم ﷺ هى نفسها طاعة الحق تبارك وتعالى : إذ قال سبحانه : « من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا »(٣) :

رابعا : الأدب الكامل مع الرسول الكامل صلى الله عليه وسلم : وتعظيمه وتوقيره واحترامه صلى الله عليه وسلم ، ومن مظاهر ذلك فى السورة الكريمة :

(أ) خفض الصوت بحضرته وعند مخاطبته ، وعدم رفع الصوت

---

(١) سورة عمران — ٣١

(٢) سورة الحجرات — ١٤

(٣) سورة النساء — ٨٠

فوق صوته صلى الله عليه وسلم ، لقوله تعالى: « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي . . . » .

(ب) عدم الجهر له صلى الله عليه وسلم بالقول ، فلا يكون الصوت عند مخاطبته صلى الله عليه وسلم بالجهر المماثل لما اعتاد الناس فى مخاطبة بعضهم لبعض . كما قال تعالى « ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض » .

فالنهى السابق عن الزيادة فى رفع الصوت حتى يكون فوق صوت النبي صلى الله عليه وسلم ، والنهى ههنا عن المماثلة فى الجهر ومفاده ، الاسرار والخشوع فى مخاطبته ﷺ إجلالا لمقامه الأسمى .

(ج) عدم مخاطبته ﷺ باسمه أو بكنيته بأن يقال له يا محمد أو يا أحمد ، أو يا أبا القاسم ، بل يقال له يا نبى الله ، ويا رسول الله وهذا هو الوجه الثانى فى تفسير قوله تعالى : ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض .

(د) التزام الحشمة مع حضرته ﷺ ، وعدم مناداته من وراء الحجرات والتخلق بحفظ الأدب فى ذلك بالصبر والانتظار حتى يخرج صلى الله عليه وسلم من حجراته ، واستقباله بكمال المهابة والخشوع والاجلال لمن خاطبه ربه عز وجل بقوله ، « وإنك لعلى خلق عظيم »[1] .

ثم ننتقل إلى المحور الموضوعى الثالث للسورة الكريمة وهو :

---

(١) سورة القلم / ٤

علاقة المؤمن بمجتمعه الإيمانى وإخوته فى الإيمان :

وفى تحديد السورة الكريمة لأسس ومعالم هذه العلاقة ، تتجلى عظمة القرآن الكريم فى بناء المجتمع الراشد على أرسخ الدعائم ، وأمتن الأواصر وأوثق العرى والوشائج ، فالركيزة الأساسية التى يقوم عليها المجتمع المؤمن كما يوضح القرآن الكريم ، هى الأخوة الإيمانية أو الإخاء الإيمانى . تلك الركيزة التى وضعها الحق تبارك وتعالى ونطق بها كتابه المبين قال جل شأنه : « إنما المؤمنون إخوة » .

إنها الأخوة فى الله تبارك وتعالى ، وإنه الرحم الإيمانى بين المؤمنين، وإنها للعروة الوثقى التى لو استشعرها المؤمنون فى عالم اليوم لكانوا أقوى أمم الأرض وأرفع أهل البسيطه علماً وحضارة ومجداً وسؤدداً .

إن حقيقة الاخوة الإيمانية لتربو على علاقة أخوة الدم ، وتفوقها حرمة وقدسية وحقوقاً . فإن المودة واجبة فى محيط أخــوة الإيمان ، ولكنها تكون محرمة فى نطاق أخوة الدم إذا ما افتقدت وشيجة الإيمان ومن ثم يقول الحق تبارك وتعالى : « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه .. »(١)

إن حرمة الإيمان لا تقاس بها حرمة الدم أو العنصر أو الجنس ، فإن الماديات الطينية لا تطاول شعاع نور الإيمان الوهاج الموصل إلى الحق سبحانه وتعالى .

ولقد أسس القرآن الكريم ـ فى سورة الحجرات ـ العديد من الأسس

---

(١) سورة المجادلة ٢٢

والركائز التى تنظم علاقة المؤمن بأخيه فى الإيمان . وتتمثل تلك الركائز فيما يلى : —

١ — حفظ دم المؤمن وتحريم قتاله بغير حق شرعى أوجبه الله تعالى، وصار وجوبه معلوما من الدين بالضرورة .

وفى سبيل حقن دم المؤمن أوجب الله على المؤمنين أن يصلحوا بين الطائفتين من المؤمنين إذا ما اقتتلوا حتى لا يراق دم مؤمن بغير حق وفى سبيل حقن دماء المؤمنين شرع الله تعالى مقاتلة الفئة الباغية حتى تفىء إلى أمر الله تعالى وحكمه ، فإذا ما فاءت لذلك وجب الاصلاح بين الفئتين المقتتلتين بالعدل والإقساط الذى يحبه الله تعالى .

٢ — الاصلاح بين الأخوين فى الإيمان إذا تخاصما وتدابرا ، حفاظا على نقاء الأخوة الإيمانية وصفائها من شوائب الإحن ومكدراب الألفة والتحاب فى الله تعالى ، ليكون المؤمنون صفاً واحدا مجتمعين على قلب رجل واحد ، وبهذا يسود التراحم فى جسد المجتمع الإيمانى الواحد وتقوى أواصر الأخوة فى الله تعالى ، وقد وجهت السورة الكريمة إلى هذا المقصد الأسمى فى قوله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة ، فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » .

٣ — التثبت فى خبر الفاسق وتبين صدقه من كذبه لئلا يصاب بسبب الأخذ بقوله قوم بجهالة ويقع — من جراء فتنة — القتال والشجار بين المؤمنين . فيئول أمرهم أخيرا إلى الندم . يقول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على مافعلتم نادمين » .

إن العمل بهذا المبدأ القرآنى ركيزة أساسية فى سلامة البناء الاجتماعى الايمانى والحفاظ على قوة العلاقة بين المؤمن وأخيه .

٤ — توقى السخرية والاستهزاء في المجتمع الإيماني فلا يسخر بعض المؤمنين والمؤمنات من بعض إذ ربما يكون المسخور منه خيرا وأعظم قدرا عند الله تعالى من الساخر كما قال جل شأنه : « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن .. » .

٥ — توقى لمز المؤمن فلا يعيب مؤمن على أخيه ولا يطعنه ولا يلعنه فإن المؤمنين كنفس واحدة ، فمن طعن أخاه فإنما طعن نفسه في الحقيقة ، ومن ثم يقول ربنا جل شأنه : « ولا تلمزوا أنفسكم ... » .

٦ — توقى التنابز بالألقاب ، فلا يلقب مؤمن مؤمناً بما يكره ، ولا يدعوه بما لا يحب ، ولا يعيره بذنب كان اقترفه ثم تاب منه ، كل ذلك قد وجه اليه القرآن الكريم العظيم بقوله تعالى : « ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون » .

٧ — إجتناب كثير من الظن الذي تبنى عليه المضار وتفسد به العلاقة بين المؤمنين ، مما لا يعرف له سبب ظاهر ولا إمارة واضحة ، فينبغي الاحتياط في كل ظن حتى لا يقع المؤمن في ظل السوء المؤثم ، وهو أن يظن بأخيه المسلم سوءا فيقع في مهاوى الشحناء والسخرية واللمز والتنابز والبغضاء مما نهى عنه شرعاً ، وقد وجه الحق تعالى لذلك بقوله سبحانه « يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم »

٨ — توقى التجسس وتتبع عورات المسلمين . فان التجسس ذميمة تفتح باب الشر كله والإسلام إذ ينهى عن رذيلة التجسس — التي حرمها الشارع الحكيم — إنما يحرص لبنيه على كفالة الحرية الشخصية التي لا تنقص من حرية الآخرين ، ولا تقدح في الحفاظ على البناء

الإيماني بوجـــه من الوجوه . من ثم يوجهنا الحق تبارك وتعالى بقوله « ولا تجسسوا » .

٩ — توقي الغيبة ، وهي أن يذكر المؤمن أخاه في غيبته بما يكره . وقد نهانا القرآن الكريم عنها إذ قال سبحانه « ولا يغتب بعضكم بعضا » .

ثم يجسد الحق تعالى بشاعة هذه الجريمة النكراء بهذ التمثيل المروع فيقول تعالى : « أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه » .

ثم يأمرنا الحق سبحانه — أخيرا — بأن نتقيه في هذه الأمور فنتقيه في حق أخوة الإيمان .

١٠ — عدم التفاخر بالأحساب والأنساب ونبذ التكاثر بالأموال ، والازدراء بالفقراء ، والرجوع في التماس الفضل والرجحان إلى التقوى التي هي ذروة سنام العبودية الصادقة لله جل وعلا ، وقد وجه سبحانه عباده المؤمنين إلى اقتناصها حيث يتحق بها شرف الدنيا والآخرة ، فقال تقدست أسماؤه : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى . وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » .

وهكذا ترسخ الدعائم القوية ، لتحقق رابطة الأخوة الايمانية على أسس من المحبة في الله تعالى ، و نبذ قوادحها ، ولتنسج رداء الإخاء بخيوط التقوى المترابطة على رضوان من الله .

وهكذا تتكامل ملامح الصورة الأخلاق المثالية التي رسمها القرآن للمجتمع الايماني ليبنى بها خير أمة أخرجت للناس .

وبعض عرض تلك الركائز التي تقوم عليه العلائق الثلاثة بما تتضمنه

من هداية [illegible]قية مشعه [illegible] وانب النفس الإنسانية ، يحلو لنا ويجمل بنا أن نضيف — لتعميق هذه المفاهيم القرآنية ـ عرض الإمام فخر الدين الرازى لها فى تفسيره الذى يحوى صورة شيقة للتناول الموضوعى المبدع.

فيقول رضى الله تعالى عنه :

« هذه الصورة فيها إرشاد المؤمنين إلى مكارم الأخلاق، وهى إما مع الله تعالى ، أو مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو مع غيرهما من أبناء الجنس ، وهم على صنفين :

لأنهم : إما أن يكونوا على طريقة المؤمنين، وداخلين فى رتبة الطاعة أو ـ خارجا عنها ـ وهو الفاسق .

والداخل فى طائفتهم السالك لطريقتهم : إما أن يكون حاضراً عندهم أو غائباً عنهم . فهذه خمسة أقسام:

أحدها : يتعلق بجانب الله .

وثانيها : بجانب الرسول صلى الله عليه وسلم .

وثالثها : بجانب الفساق .

ورابعها : بالمؤمن الحاضر .

وخامسها : بالمؤمن الغائب .

فذكر الله تعالى فى هذه السورة خمس مرات . « يا أيها الذين آمنوا »، وأرشد فى كل مرة إلى مكرمة مع قسم من الأقسام الخمسة .

فقال ـ أولا : « يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله »، وذكر الرسول ﷺ كان لبيان طاعة الله ، لأنها لا تعلم إلا بقول رسول الله ﷺ .

وقال ـ ثانياً ـ « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي » لبيان وجوب احترام النبي ﷺ .

وقال ـ ثالثاً ـ « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ » لبيان وجوب الاحتراز عن الاعتماد على أقوالهم، فإنهم يريدون إلقاء الفتنة بينكم ، وبين ذلك عند تفسير قوله تعالى « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا » .

وقال ـ رابعاً ـ « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم » وقال : « ولا تنابزوا » : لبيان وجوب ترك إيذاء المؤمنين في حضورهم والازدراء بحالهم ومنصبهم .

وقال ـ خامساً ـ : « يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم » وقال « ولا تجسسوا » وقال : « ولا يغتب بعضكم بعضاً » لبيان وجوب الاحتراز عن إهانة جانب المؤمن حال غيبته ، وذكر مالو كان حاضر التأذى . وهو في غاية الحسن من الترتيب .

فإن قيل : لم لم يذكر المؤمن قبل الفاسق لتكون المراتب متدرجة : الابتداء بالله ورسوله ثم بالمؤمن الحاضر ثم بالمؤمن الغائب ثم بالفاسق ؟

نقول : قدم الله ماهو الأهم على ما دونه. فذكر جانب الله، ثم جانب الرسول ـ ﷺ ، ثم ذكر مايفضى إلى الاقتتال بين طوائف المسلمين بسبب الإصغاء إلى كلام الفاسق والاعتماد عليه ، فإنه يذكر كل ما كان أشد نفاراً للصدور .

وأما المؤمن الحاضر أو الغائب . فلا يؤذى المؤمن إلى حد يفضى إلى القتل ألا ترى أن الله تعالى ذكر عقيب نبأ الفاسق آية الاقتتال فقال :

«وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا»[1] ؟؟!هـ.

بهذا الربط الموضوعي المتسلسل عبر آيات السورة الكريمة يتجلى هدفها ومقاصدها الرئيسية التي تحقق الهدف الأمثل وهو بناء المجتمع الإسلامي الراشد عقدياً وسلوكياً وأخلاقياً، وهو كذلك تربية المجتمع المسلم بالآداب الربانية ومكارم الأخلاق. ولو استقصينا متعلقات تلك المقاصد المذكورة في سورة الحجرات لاستوعبنا آيات القرآن الكريم بأسرها في جميع سوره الكريمة، لأن هدف السورة هنا هدف كلي، يندرج تحته مقاصد التنزيل قاطبة من خلال دعوة السورة الكريمة في فاتحتها، للالتزام الكامل بأوامر الله ونواهيه، ومراقبته تعالى في جميع الأمور.

وبعد عرض مقاصد السورة الكريمة موضوعياً لتمثل مضامينها برؤية موضوعية شاملة تأتي إلى :

---

(١) أنظر مفاتيح الغيب للفخر الرازي ٧/٥٦٥ — ٥٦٦ ط الشرقية.

بسم الله الرحمن الرحيم

قبل أن نعرض فى تفسير (البسملة) تحليليا نطرق بالبحث ما تمس إليه الحاجة من بيان فضلها ووجهات المذاهب فى كونها آية من الفاتحة أم لا .

- فى فضلها يروى الحاكم بسنده وابن مردويه عن الإمام ابن عباس رضى الله عنهما أن عثمان بن عفان رضى الله عنه سأل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن (بسم الله الرحمن الرحيم) فقال : هو اسم من أسماء الله وما بينه وبين اسم الله الأكبر إلا كما بين سواد العين وبياضها من القرب)(١) .

ونقل ابن عطية والقرطبي عن الإمام علي بن الإمام الحسين رضى الله عنهما أنه قال فى تفسير قوله تعالى (وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا)(٢) : معناه: إذا قلت (بسم الله الرحمن الرحيم)(٣) ومنه يدرك سر تعقيب الاستعاذة بالبسملة والمناسبة بينهما . ويروى عن الإمام جعفر الصادق رضى الله عنه أنه قال : (البسملة تيجان السور) .

وقد ذهب بعض العلماء إلى أن البسملة هي أول ما نزل من التنزيل على الإطلاق ، فقد أخرج الواحدى بإسناده عن عكرمة والحسن قالا : « أول ما نزل من القرآن « بسم الله الرحمن الرحيم » وأول سورة : « اقرأ باسم ربك »(٤) وقد أيد الإمام السيوطى - ونحن معه - هذا الرأى ، حيث أنه من ضرورة نزول السورة نزول البسملة معها ، فهى أول آية نزلت على النبي (صلى الله عليه وسلم) على الاطلاق .

وقد ذكر ابن عطية فى تفسيره أن الشعبي والأعمش رويا أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان يكتب « باسمك اللهم » حتى أمر أن يكتب « بسم الله

(١) رواه الحاكم فى المستدرك (٢٥٢/٢) وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وصححه الذهبي .

(٢) سورة الأسراء /٤٦

(٣) تفسير ابن عطية ٨٧/١ والقرطبي ٩٢/١

(٤) أسباب النزول تحقيق سيد صقر ٨ ، والاتقان ١/

فكتبها، فلما نزلت « إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم » كتبها(١) .

وقد اختلف العلماء والأئمة فى عد البسملة آية من الفاتحة أو من غيرها — ما عدا النمل على ثلاثة أقوال :

(الأول) : أنها آية من الفاتحة ومن كل سورة غير براءة ، وهذا قول الإمام بن عباس وابن عمر رضى الله عنهما ، وإمامنا الشافعى وابن المبارك رضى الله عنهما وقراء وفقهاء مكة والكوفة ، واحتجوا لذلك بجملة من الأدلة والحجج نذكر منها : —

(أ) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : (الحمد لله رب العالمين سبع آيات بسم الله الرحمن الرحيم إحداهن ...) أخرجه الطبرانى وابن مردويه والبيهقى ، كما أخرجه الدارقطنى بلفظ (إذا قرأتم الحمد فاقرؤا بسم الله الرحمن الرحيم أنها أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثانى وبسم الله الرحمن الرحيم إحدى آياتها)(٢) وهذا نص صريح فى كونها آية من الفاتحة .

(ب) عن السيدة أم سلمة رضى الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ فى الصلاة « بسم الله الرحمن الرحيم » فعدها آية « والحمد لله رب العالمين » : آيتين ...) الحديث . أخرجه الحاكم وصحح البيهقى بعض طرقه ، كما رويت أحاديث كثيرة تؤيده(٣) .

(ج) الإجماع المنعقد على كتابتها فى المصحف بخط القرآن مع المبالغة فى تجريده عما عداه حتى منعوا من كتابة أسماء السور ولفظ آمين ، وعلامات

---

(١) أنظر التخريج فى تفسير الألوسى ٤٣/١ وتفسير الخطيب الشربينى ٤٣/١ وحاشية الشهاب على البيضاوى ٣٠/١

(٢) انظر التخريج فى نفس المصادر الآنفة .

(٣) انظر المستدرك ٢٣٢/١ ، حاشية الشهب على البيضاوى ٣١/١ .

الأعشار والأخماس فى المصحف لئلا يختلط بالقرآن ما ليس بقرآن . فلو لم تكن البسملة من القرآن لما كتبوها بخط القرآن .

وقد صرح الآلوسى بأن هذه الحجة أقوى ما يستدل به على كون البسملة من القرآن . وفيما تقدم سطوع برهان ودلالة على إثبات كونها آية من الفاتحة بخصوصها .

(القول الثانى) أنها ليست بآية من الفاتحة ولا من غيرها . وعليه قراء المدينة والبصرة والشام وفقهاؤها والإمام مالك والأوزاعى رضى الله عنهم ، واستدلوا بما ورد فى الحديث القدسى (قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ولعبدى ما سأل ، فإذا قال ، الحمد لله رب العالمين ، قال الله : حمدنى عبدى ..) الحديث . وقد رده ابن عبد السلام ـ رحمه الله ـ بأن ظاهره ليس بمراد ، لأن الصلاة ليست مقسومة بالإجماع ـ بدليل السورة المضمومة ـ بل بعض القراءة ، فالتقدير : قسمت بعض قراءة الصلاة ، وبعض قراءة الصلاة لا يستلزم الفاتحة ، فالمقسوم بعض الفاتحة ، ونحن نقول به ، انتهى (١) وأيضاً نقول أن رواية الإثبات مقدمة على رواية النفى رحيث وجد التعارض ـ وقد تقدمت روايات الإثبات ـ فالترجيح معنا .

(القول الثالث) : أنها آية فذة من القرآن أنزلت لبيان رؤس السور للفصل والتبرك بها وهو المشهور من مذهب الحنفية . بيد أنه قد نقل أن الإمام أبا حنيفة رضى الله عنه قد تورع هو وأصحابه عن الخوض فى هذه المسألة وآثر السكوت عنها (٢).

ويرد على هذا القول : أن إثباتها لمجرد الفصل معارض بثبوتها فى أول

---

(١) حاشية الشهاب على البيضاوى ١/ ٣٠

(٢) انظر تفسير الفخر الرازى ١/ ١٠٠

الفاتحة وسقوطها من أول براءة . وفيما أورده الحاكم من حديث أبي هريرة المتقدم تصريح بأن البسملة هي إحدى آيات الفاتحة السبع وفيه رد على من لم يحسبها وجعل (غير المغضوب عليهم ...) هي السابعة .

هذه هي أبرز الآراء في عد البسملة آية من الفاتحة أو غيرها . وثمة آراء أخرى مكانها في المطولات .

وعلى اعتبار البسملة آية من الفاتحة : يتفرع القول بالجهر بها معها كسائر أبعاضها وهو مذهب إمامنا الشافعي وطوائف من الصحابة والتابعين . كما تفرع مذهب الأحناف وجمع من الصحابة والتابعين في عدم الجهر بها في الصلاة عن عدم عدها منها . ومذهب الإمام مالك عدم قراءتها بالكلية(١)
أما التفسير التحليلي للبسملة : ـ

فيبدأ ببيان معنى الباء فيها وحصيلة أقوال العلماء في معناها ستة : ـ

أولها : الاستعانة (الآلية) . وثانيها : الملابسة والمصاحبة .

وثالثها : الإلصاق . ورابعها : الاستعلاء .

وخامسها : القسمية . وسادسها : أنها زائدة .

وأظهر هذه المعاني المعنيان الأولان وإن استؤنس لبعض الأربعة الأخيرة ببعض الأدلة والآيات .

وقد اختلف في الأرجح من الأولين . فذهب البيضاوي إلى ترجيح الأول وذهب الزمخشري إلى الثاني وجمعهما أبو السعود ورجح الألوسي أولهما .

---

(١) انظر الآراء وأدلتها في تفسير ابن كثير ٣٢/١ — ٣٣

وفى مضمار الموازنة بين الرأيين للترجيح بينهما نجد الزمخشرى قد تعصب للقول بأن الباء للمصاحبة لأنها ـ أى باء المصاحبة ـ أكثر استعمالا من باء الاستعانة لا سيما فى المعانى .

ورد الألوسى بأن دون إثبات الأكثرية خرط القتاد .

واحتج الزمخشرى ثانياً : بأن فى جعلها للمصاحبة تبرك باسمه تعالى وهو تأدب معه وتعظيم له . أما جعلها للآلة ـ بمعنى الاستعانة ـ فإن الآلة تكون مبتذلة وغير مقصودة لذاتها وهو ينافى التعظيم .

ورد الألوسى بأن تصور ابتذال الآلة ناشىء من تمثيلهم فى الآلة بالمحسوسات وليست كل استعانة ممتهنة إذ لا شك فى صحة قولك (استعنت بالله) وقد قال تعالى : (استعينوا بالله واصبروا) .

ثم إن تخصيص الاستعانة بالآلة محل نظر ، لأنها قد تكون بها وبالقدرة . وحتى لو سلم هذا التخصيص فمفاد الآلية : الإشارة إلى أنه تعالى : مقصود بالعرض كما أنه مقصود بالذات .

كما احتج الزمخشرى بأن فى معنى مصاحبة التبرك رد على المشركين الذين كانوا يتبركون بالابتداء بأسماء آلهتهم .

ورد بأن المشركين كانوا يستعينون بآلهتهم للتقرب إلى الله زلفى . ولذلك أشبه بالآلية منه بالمصاحبة فالرد عليهم بتصحيح الاستعانة أولى (١) .

---

(١) ومن مشمات الرد على الزمخشرى فى هذه النقطة : أن التبرك ليس من خصوص المصاحبة بل إن ظهور التبرك مع الاستعانة آكد لتوقف الاعتداد الشرعى عليها .

ومن حق الحقيقة أن نرفع توهم أن كفر المشركين مداره استعانتهم بغير الله ، فالاستعانة بالعبد على البر والتقوى مشروعة بنص التنزيل وإنما مناط كفرهم أنهم جعلوا عبادة غير الله وسيلة للاستعانة

وقال الزمخشري إن حمل "الباء على المصاحبة أدل على ملابسة جميع أجزاء الفعل لاسمه تعالى من حملها على الآلية

ورد بعكس مدعاه . لأن الآلة لابد من وجودها في كل أجزاء الفعل إلى آخره وإلا لم يتم . بينما لا تستلزم مصاحبة شيء لشيء ملابسته لجميع أجزائه.

ثم كان من أبرز ما احتج به الزمخشري لرأيه : أن من جعل اسمه تعالى آلة لقراءة الفاتحة لا يتأتى على مذهب من يقول إن البسملة من السورة .

ورد عليه : بأنه لا يمتنع أن يكون ما يفتتح به الشيء جزءا منه، فإن الفاتحة هي مفتتح القرآن وهي جزء منه . وحتى لو سلم فإن جعلها مفتتحا يكون بالنسبة لما عداها . وأخيرا : فإن رجحان جعل الباء للاستعانة على جعلها للمصاحبة أحرى بالقبول لما فيه من استشعار طلب العون من الله تعالى وإظهار أدب العبودية والاستكانة والخضوع لمن عنت له وجوه الكائنات ، ولما فيه من إسقاط الحول والقوة عن العبد واستمدادهما من لا حول ولا قوة إلا به تعالى . وفيه الرد على القدرية بنفي استقلال قدر العباد وتأثيرها . كما أن فيه استفتاحاً لباب الرحمة وأنسية ملموسة بين معنى الاستعانة في الباء وبين قوله تعالى (وإياك نستعين) فكان في معنى الباء . عنوان الخطاب وقرعا - بالأدب لباب حضرة الجناب .

والباء في (بسم الله) متعلقة بمحذوف ينبيء عنه الفعل المصدر بها . فكل فاعل يضمر ما يجعل التسمية مبدأ له . فالطبري يقدره هنا (أتلو) لأن تاليه متلو . وهذا أولى من تقديره (أبدأ) لاقتضائه اقتصار التبرك على البداية وعدم شموله للكل بالبركة .

وذهب بعضهم إلى تقدير (ابتدائي) مثلا . وفيه زيادة إضمار لوجوب إضمار الخبر فيكون المضمر حينئذ ثلاث كلمات فضلا عن أن دلالة المضارع - في تقدير اقرأ أو اتلو على الاستمرار التجددي أنسب للمقام هنا من دلالة الاسمية على الثبوت

وثمة تفسير إشارى للامام محى الدين بن عربى قدس الله سره ههنا وهو أنه يجعل المضمر مبتدأ تقديره: ابتداء العالم وظهوره ، لأن سبب وجوده الأسماء الإلهية . وهو وجه لعمرى وجيه .. وتقديم المعمول ههنا ـ الجار والمجرور أوقع وأحرى بالقبول كما فى قوله تعالى : ـ (بسم الله مجراها) ، لأنه أهم وأدل على الاختصاص وادخل فى التعظيم وأوفق الوجود . لأن اسم الله تعالى مقدم على الفعل ذاتا فليقدم ذكرا ولذلك قال : بعض العارفين : (ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله) . كذلك فإن تصدير الفعل باسمه تعالى لابدى لاتمام الفعل والاعتداد به شرعا لقوله صلى الله عليه وسلم (كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه ببسم الله فهو أبتر)(١) .

وإنما كسرت باء البسملة مع أن الحروف المفردة من حقها أن تفتح : لاختصاصها بلزوم الحرفية والجر وكلاهما يناسب الكسر . أو كما قال ابن عطية : ليناسب لفظها عملها . أو لكونها لا تدخل إلا على الأسماء خصت بالخفض الذى لا يكون إلا فى الأسماء . وقال بعض العارفين : كسرت الباء فى البسملة تعليما للتوصل إلى الله تعالى والتعلق بأسمائه بكسر الجناب والخضوع وذل العبودية ، فلا يتوصل إلى نوع من أنواع المعرفة إلا بنوع من أنواع الذلة والكسر كما قال سيدى : عمر بن الفارض رضى الله عنه :

ولو كنت لى من نقطة الباء خفضة   رفعت إلى ما لم تنله بحيلة

فإن الخفض يقابل الرفع ، فن خفضه النظر إلى ذل العبودية رفعه القدر

---

(١) أخرجه الامام السيوطى فى الجامع الصغير بلفظ (كل أمر لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم أقطع . عن عبد القادر الرهاوى ونقل الحافظ المناوى عن الامام النووى أنه قال فيه : وهو حديث حسن) أنظر فيض القدير ١٤/٥ كما خرجه فى كنز الحقائق (٣٠/١٢) عن البيهقى فى السنن

إلى مشاهدة عز الربوبية ، ولا ينال هذا الرفع بحيلة ، بل هو بمحض الموهبة الإلهية الجلية)(١) .

وإنما حذفت الألف من (بسم الله) في الخط : إختصارا وتخفيفاً ، لكثرة الاستعمال .

وأما الاسم : فهو عند البصريين من الأسماء التي حذفت أعجازها لكثرة الاستعمال وبنيت أوائلها على السكون ثم أدخلت عليها عند الابتداء همزة الوصل لأن من دأبهم الابتداء بالمتحرك كما أنها تسقط في الأدراج . فأصل الاسم على هذا سمو ووزنه إفع ويجمع على أسماء كقنو وأقناء . واشتقاقه من السمو لأنه يعلو المسمى . فالاسم ما علا وظهر فصار علماً للدلالة على ما تحته من المعنى(٢) .

أما عند الكوفيين : فهو مشتق من السمة ـ وهي العلامة ـ كالعدة والزنة وأصله وسم . حذفت الواو وعوضت عنها همزة الوصل . فوزنه : إعل .

والراجح : رأي البصريين ، لأنه لا يعرف شيء حذفت منه فاء الفعل فدخلت عليه ألف الوصل كالعدة والزنة . ولو كان من الوسم لكان تصغيره : وسيما ، كما يقال في تصغير عدة : وعيدة . ويشهد لمذهب البصريين تصريف الاسم على أسماء ، وأسامي ، وسمي وهنا مبحث كلامي ـ في الاسم ـ يفرض نفسه على بساط البحث التفسيري ، وإن ندد بعضهم كالإمام الطبري بالخوض فيه ، وهو :

هل الاسم هو عين المسمى أو غيره ؟ ؟

---

(١) تفسير العلامة الالوسي ٥١/١
(٢) تفسير البسيط للواحدي .. مخطوط بدار الكتب برقم ٥٣ـ تفسير

لعلماء الكلام فيه كلام كثير وجدل مثير بيد أننا سنستحب خلاصة موجزة نحقق بها مرام التفسير من المسألة دون خوض في متاهات الجدل .

فنقول : إن الاسم قد يطلق ويراد به نفس الذات والحقيقة والوجود والعين . ومنه قوله تعالى (سبح اسم ربك الأعلى) إذ التسبيح هنا متوجه إلى الذات الأقدس(١) . وعلى هذا يكون الاسم عين المسمى .

وقد يطلق الاسم ويراد به : ما دل على المسمى ، وهو قسمان :

أحدهما : قديم . وهو ما سمى الله تعالى به نفسه في كلامه القديم الذى هو صفته تعالى . فينقسم الدال حينئـــذ ـ انقسام الصفة ـ إلى ما هو نفس المسمى . وما هو غيره وإلى ما ليس هو ولا غيره(١) .

وهذا هو متجه إمامنا أبي الحسن الأشعرى رضي الله عنه . وثانيهما : حادث وهو ما سُمى(٢) به تعالى شأنه من التسميات الحادثة . وهو متجه المعتزلة . فالإسم عندهم هو التسمية وهي غير المسمى . وهم ينفون القسم الأول من الإطلاق الثاني الذى ذهب إليه الأشعرية . لأن المعتزلة ينفون الكلام القديم لله تعالى فبنوا مذهبهم في الإسم على أصل مذهبهم في نفي الصفة واحتجوا لقولهم أن الإسم ـ بمعنى التسمية ـ غير المسمى بأن الإسم قد يتعدد والمسمى واحد ، ثم هو طارىء بعد وجـــود المسمى والشيء لا يتقدم على نفسه ولا يتأخر . ثم أن الإسم ـ عندهم ـ متألف من أصوات مقطعة غير قارة ويختلف باختلاف الأمم والأعصار بينما المسمى ليس كذلك .

وهذه الاعتراضات من المعتزلة غير واردة إلا على تقدير القول بالعينية

---

(١) وقيل ان المراد هنا تنزيه اللفظ لأنه كما يجب تنزيه ذاته تعالى عن النقائص يجب تنزيه الألفاظ الموضوعة لها عن الرفث وسوء الأدب .

(٢) وهذا الانقسام وتفاصيله : موضعه بطون أسفار علم الكلام . والذى يعنينا هنا ـ تفسيراً هو ثمرة البحث لا تفاصيله .

(٣) الفعل (سمى) هنا مبنى للمجهول والمراد : ـ ما سمى غير الله تعالى به ذاته من التسميات الحادثة

وهو الاطلاق الأول بناء على فهمهم م الإسم على أنه بمعنى التسمية ولكنها غير واردة على الاطلاق على القسم الأول من الإطلاق الثانى وهو مذهب السادة الأشعرية. وقد أماط الامام الألوسى الامام عن لبس عظيم فى فهم هذه المسألة أوقع كثيراً من الفطاحل فى لجة الحيرة ـ ومنهم الشهاب فى حاشيته على البيضاوى ـ حيث تردد عن الامام الأشعرى رضى الله عنه أنه قال بأن الاسم عين المسمى كما تردد عنه أنه قال بأن الاسم لا هو عين المسمى ولا غيره فاضطربت الأفهام لذلك وتوعر عليها طريق الفصل فى القضية . بجاء خاتمة المحققين وعمدة المدققين، الألوسى وأذهب اللبس بنور معرفته فذكر أن الأشاعرة لما رأوا أن نزاع المعتزلة لهم فى القسم الأول من الاطلاق الثانى يعود إلى النزاع فى منشئه (وهو الاطلاق الأول المقتضى لأن الاسم عين المسمى) تركوا الاحتجاج فيه وتصدوه إلى النزاع فى المنشأ وهو الاطلاق الأول ودللوا عليه بقواطع الحجج وسواطع البراهين . فكان هذا مثار اللبس الذى بددته أضواء الحقيقة.

بعد هذا ننتقل إلى لفظ الجلالة فى البسملة الكريمة :

الله

هذا الاسم العظيم هو أكبر أسمائه تعالى وأجمعها حتى لقد ذكر بعض العلماء أنه اسم الله الأعظم (٢) وقد حقق ذلك أقطاب المعرفة ومنهم شهاب الدين الآلوسى قدس الله سره اذ يقول : (فالذى أرتضيه لا عن تقليد : أن هذا الاسم الأعظم موضوع للذات الجامعة لسائر الصفات . وإلى ذلك يشير كلام ساداتنا النقشبندية(٣) بلغنا الله ببركاتهم كل أمنية فى الوقوف القلبى ، وهو أن يلاحظ الذاكر فى قلبه كلما كرر سكر هذا الاسم الأقدس دائما بلا مثل . وحققه الشيخ الأكبر قدس سره فى مواضع عديدة من كتبه(٤) .

والأصل الإعلالى للفظ الجلالة (الله) ـ كما يراه فريق من العلماء ـ إله . حذفت همزته وعوض عنها الألف واللام ولذا قيل يا الله بالقطع . والإله فى الأصل : اسم جنس يقع على كل معبود بحق أو باطل ، ثم غلب على المعبود بحق . ونقل الإمام الآلوسى عن العلامة السعد : أن الإله اسم لمفهوم كلى

---

(١) أنظر تفسير القرطبى ١ / ١٠٢

(٢) هذا تصريح من الامام الآلوسى بأنه ــ رضى الله عنه ــ كان سالكاً الطريقة الصوفية النقشبندية وهى الطريقة التى يتشرف مؤلف هذا الكتاب بالانتماء اليها ــ وقد صرح الشيخ محمد الفاضل بن عاشور فى كتابه (التفسير ورجاله) ص ١٢٦ بانتماء الإمام الآلوسى للطريقة النقشبندية على يد سيدى خالد الكردى وهو الذى قال فيه مبدعا :

فلى فيه أستاذ ولى فيه مرشد ولى فيه قطب ذو اتصال ولى ولى

(٣) تفسير الامام الآلوسى ١ / ٥٨

(٤) أنظر روح المعانى ١ / ٥٦ ومفاتيح الغيب ٩ / ٨٤

هو المعبود بحق، و (الله) علم لذاته تعالى(١) وقال الواحدى (وعند متكلمى صحابنا أن الإله من له إلهية . والإلهية : القدرة على اختراع الأعيان) (٢) وقد اختلف العلماء فى هذا الاسم الجليل (الله) من الناحية اللغوية ، هل هو مشتق أو علم موضوع للذات العلية ، فذهب فريق من العلماء إلى أنه مشتق وتعددت الأقوال فى اشتقاقه .

فقيل إنه مشتق من أله — كعبد — إلاهة كعبادة(٣) وألوهة كعبودة ، وألوهية كعبودية .

فإله : صفة مشبهة بمعنى مألوه، ككتاب بمعنى مكتوب. ومنه تأله واستأله.

وقيل : مشتق من أله — كفرح — بمعنى تحير ، لأن العقول تتحير فى كنه ذاته وصفاته ، وقيل : من ألهت إلى فلان أى سكنت إليه. لأن الأرواح تسكن إلى معرفته والقلوب إلى ذكره . وقيل : من أله إذا فزع لأنه تعالى هو المفزوع إليه وهو المجير ولا يجار عليه .

وقيل : هو من أله الفصيل إذا ولع بأمه ، إذ العباد مولعون بالتضرع إليه فى الخطوب والشدائد وقيل : إنه مأخوذ من وله — الواوى — بمعنى تحير ، وأصله : ولاه ، فقلبت الواو همزة لاستثقال الكسرة عليها فقيل إله. ونظيره : وعاء ووشاح أصلهما إعاء وإشاح . لكن يرد هذا الوجه جمعه على آلهة دون أولهة ...

وقيل : أن أصله (لاه) مصدر لاه يليه - أو يلوه - ليها، ولاها ، بمعنى

---

(١) نفس المرجع ١/٥٥

(٢) تفسير البسيط للواحدى ١/١٤

(٣) يؤيد ذلك ماروى عن الإمام بن عباس أنه كان يقرأ (ويذرك وإلاهتك) قال ومعناه : وعبادتك (المرجع السابق) .

ارتفع واحتجب لأنه سبحانه المحتجب بسرادقات الجلال عن مرائى العقول والحواس ومدركات الخيال . وقد قرىء شاذا (وهو الذى فى السماء لاه)(١) كما يشهد له قول الأعشى :

كحلفة من أبي رباح يشهدها لاهه الكبارا

وأضاف العارف الألوسي رضى الله عنه ، وجها ـ للوجوه ـ فقال : (وقيل أصله ـ أى لفظ الجلالة ـ الكناية ـ أى ضمير الغيبة (هو) ـ قال : لأنها للغائب ، وهو سبحانه الغائب عن أن تدركه الأبصار أو تحيط به الأفكار . وأيضا : الهاء يخرج مع الأنفاس فهو المذكور وأن لم تشعر به الحواس ، ومتى انقطع خروجه انقطعت الحياة وحل بالحى الممات . فبه وباسمه قوام الأرواح والأبدان واستقامة كل متنفس من الحيوان ، فزيد عليها ـ أى على هاء ضمير الغيبة لام الملك، ثم مد بها الصوت تعظيما ، ثم ألزم اللام واستأنس لهذا : أن الاسم الكريم إذا حذفت منه الهمزة بقى : لله (ولله جنود السموات والأرض) . وإذا تركت اللام: تبقى على صورته : (وله مافى السموات وما فى الأرض) وإن تركت اللام الباقية بقى الهاء المضمومة من (هو)(لا إله إلا هو) ، والواو زائدة بدليل سقوطها فى هما وهم . فالاصل (هو) إذ لا يبقى سواه(٢) .

وذهب فريق آخر من العلماء والائمة : إلى أن لفظ الجلالة اسم علم للذات الجليل ابتداء وليس بمشتق . ومن هؤلاء الائمة : امامنا الشافعى وامامنا الاشعرى ـ وغالب أصحابه ـ والامام الغزالى وامام الحرمين والخطابى والفخر الرازى .(٣) ومن أدلتهم على ذلك .

---

(١) سورة الزخرف/٨٤

(٢) أنظر روح المعانى ١ / ٥٦ ومفاتيح الغيب ١ / ٨٤

(٣) نفس المرجع ٥٧/١ وأنظر أيضاً تفسير القرطبي ١/ ١٠٣

(١) أنه لو كان لفظا مشتقا لكان معناه معنى كليا لا يمنع نفس مفهومه من وقوع الشركة فيه ولو كان كذلك لما كان قولنا (لا إله إلا الله توحيدا حقاً . وحيث أجمع الكل على أن قول (لا إله إلا الله) موجب للتوحيد المحض فقد ثبت بالقطع أن لفظ الجلالة (الله) اسم علم موضوع للذات الالهيـــة .

(٢) أن هـذا اللفظ اسم مختص بذاته تعالى بدليل قوله سبحانه (هل تعلم له سميا)(١) ففيه القطع بامتناع إطلاقه على غيره تعالى وهذا جد كاف فى تمحض علميته للذات الاقدس .

(٣) أنه يوصف ولا يوصف به ، وماذلك إلا لكونه علما للذات الجليل ابتداء .

والتوضيح نقول : ان الاسماء الالهية الحسنى تنقسم إلى قسمين : فمنها ماهو للذات ومنها ماهو للصفات أما اسم الذات فهو علم موضوع للذات غير مشتق ولا اسم جنس ، حتى لا يقبل الشركة ابتداء ، ولأن اسم الذات غير مشتق أصلا فانه لا يصح أن يوصف بما يصح أن يوصف هو . وأما أسماء الصفات فانها لا يمكن ذكرها الا بعد ذكر الموصوف ، فلا بد لذلك الموصوف من اسم ولما كان كل ما سوى هذا الاسم الجليل (الله) من باب الصفات . وجب القطع بأن هذا الاسم اسم للذات العلية المخصوصة (٢)

ومن ثم نختلف فى الرأى مع القاضى البيضاوى حيث ذهب — فى تفسيره إلى اسم الذات (الله) وصف فى أصله لكنه لما غلب عليه بحيث لا يستعمل فى غيره وصار له كالعلم — مثل الثريا والصعق أجرى مجراه فى أجراء الاوصاف عليه وامتناع الوصف به وعدم تطرق احتمال الشركة اليه .

---

(١) سورة مريم / ٦٥

(٢) أنظر كتاب (لوامع البينات شرح أسماء الله تعالى والصفات) للامام فخر الدين الرازى ص ٤٠ ، ص ١٠٩ .

وقد استند البيضاوى فى دعواه إلى أن ذاته تعالى — من حيث هو — غير معقول للبشر فلا يمكن أن يدل عليه بلفظ يكون علما لذاته لأن العلم إنما يكون للذات المعين المعلوم .

ويرد على هذا بأنه لايمتنع أن يشرف الله تعالى — وهو العالم بذاته — بعض عبيده بأن يخلق فى قلبه علما به من حيث هو . وبذا لايبعد إثبات اسم العلم له تعالى ابتداء(١)

كما احتج القاضى بأن هذا الاسم الجليل لو على بمجرد ذاته المخصوص لما أفاد ظاهر قوله تعالى (وهو الله فى السموات ...)(٢) معنى صحيحا .

ويجاب عنه : بأن العلم قد يلاحظ معه معنى يصلح به لتعلق الظرف كقول الشاعر :

أسد على وفى الحروب نعامة — فتخاء تنفر من صفير الصافر

فكما لوحظ مع الأسد معنى الجرأة والاستطالة حتى صح تعلق الجار والمجرور به . كذا لوحظ مع الاسم الجليل صفة المعبود بحق فتعلق به الجار . فضلا عن أنه يمكن أن يتعلق بالفعل (يعلم) بعده ثم احتج القاضى أخيرا — لاشتقاق الاسم الجليل من الأصول اللغوية — التى سبق ذكرها بأن معنى الاشتقاق — وهو كون أحد اللفظين مشاركا للآخر فى المعنى والتركيب — حاصل بين لفظ (الله) وبين الأصول المذكورة . وهذا مثبت — عنده — لكونه وصفا مشتقا فى الأصل قبل أجرائه مجرى العلم .

وقد أجاب على هذا الشهاب الألوسى بأن منكر الوصفية والاشتقاق فى الاسم الجليل لا يسلم التوافق فى المعنى بينه وبين ما ادعى اشتقاقه منه .

---

(١) انظر تفسير البيضاوى ١/٤

(٢) سورة الأنعام / ٣

حيث أن مدلول الاسم الجليل هو الذات العلية وهذا المدلول الأقدس دون كل تلك المعانى مع تصحيح ثبوتها للجناب الأعلى تقدست أسماؤه(١) وبذا نخلص أخيراً إلى الرأى الراجح وهو أن لفظ (الله) علم على الذات الجليل ابتداء.

وقد نقل القرطبى فى تفسيره ـ ما يرجح أن الالف واللام أصليتان فى لفظ (الله) فقال : (قال الخطابى والدليل على أن الألف واللام من بنية هذا الاسم ولم يدخلا للتعريف : دخول حرف النداء عليه كقولك يا الله. وحروف النداء لاتجتمع مع الالف واللام للتعريف. الا ترى أنك لاتقول يا الرحمن ولا يالرحيم كما تقول يا الله)(٢).

° ° °

---

(١) مرجع هذه المناظرة وأدلتها ما أوردناه ـ للامام الفخر والبيضاوى مع تفسير أبى السعود ـ مضافا إليه نظرة المؤلف الذاتية التحليلية الموضوعية المستهدفة لتيسير عرض الآراء وكشف جانب الرجحان فيها.

(٢) انظر تفسير القرطبى ١٠٣/١

... الرحمن الرحيم

أما (الرحمن) : فللعلماء كلام فى عربيته واشتقاقه . فقد اتفق الأكثرون على أن اسم الرحمن عربى لفظه . وذهب ثعلب إلى أنه عبرانى مستنداً إلى أن العرب لم يستعملوا هذه اللفظة قبل نزول القرآن، وأنها وردت فى العبرانية وأن العرب أنكرت هذا الاسم حين نزل به القرآن كما فى قوله تعالى : (وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن)(١) وأنه لو كان مأخوذاً من الرحمة لكان ترتيبه فى الذكر بعد الرحيم لكونه أشد مبالغة منه .

ويجاب عن ذلك : أولا : بأنه قد استعمل العرب — فى الجاهلية — هذا الاسم فى أشعارهم ومن ذلك قول زيد بن عمرو بن نفيل :

ولكن أعبد الرحمن ربى ليغفر ذنبى الرب الغفور(٢)

وأما إنكارهم للرحمن فى الآية الكريمة فكان لأجل أنهم لما سمعوا قوله تعالى (قل أدعوا الله أو أدعوا الرحمن(٣)) توهموا أن الله غير الرحمن فانكروه بهذا الخيال(٤) .

وأما تقديمه فى الذكر على (الرحيم) : فلكونه — بالإضافة إلى زيادته عليه فى مدلول الرحمة مختصاً به عز وجل فى الاطلاق صار حقيقا بأن يكون قريناً لاسم الذات (الله) فلذا تقدم .

---

(١) سورة الفرقان / ٦٠

(٢) انظر سيرة ابن هشام بتحقيق محمد محى الدين ١٤٨/١

(٣) سورة الاسراء / ١١٠

(٤) أنظر لوامع البينات للامام الرازى ص ١٥٥

وإذا كان اسم الرحمن قد تقدم استعمال نظيره فى العبرانية ـ فإن ذلك غير قادح فى عربيته . لوقوع كثير من المشابهات بين ألفاظ اللغتين(١) ثم لنا مزيد من تأكيد عربيته من خلال البحث فى مادته الاشتقاقية والتدليل عليها نصا من الحديث النبوى الشريف .

فبينا ذهب بعض العلماء ـ المسلمين بعربيته ـ إلى القول بعدم اشتقاقه لأنه من الأسماء المختصة به سبحانه : ذهب الجمهور من العلماء إلى القول إلى أن الرحمن مشتق من الرحمة ، مبنى على المبالغة ، ومعناه ذو الرحمة التى لا نظير له فيها فلذلك لا يثنى ولا يجمع كما يثنى الرحيم ويجمع . قال القرطبى ـ فيما نقله عن ابن الحصار ـ :

ومما يدل على الاشتقاق ما خرجه الترمذى وصححه عن عبد الرحمن ابن عوف أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قال الله تعالى :

أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمى . فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته(٢) » . وهذا نص فى الاشتقاق فلا معنى للمخالفة والشقاق . وإنكار العرب له لجهلهم بالله وبما وجب له »(٣) .

والمشهور عند العلماء : أن (الرحمن) و (الرحيم) صفتان مشبهتان بنيتا لإفادة المبالغة وأنهما من رحم ـ مكسور العين ـ نقل إلى رحم ـ المضموم العين ـ بعد جعله لازما ـ بمنزلة الغرائز ـ ونقل عن سيبويه أن الرحيم ليس بصفة مشبهة بل هى صيغة مبالغة .

حيث عرف استعمالهم لها كذلك فى قولهم : (هو رحيم فلانا) . كذلك

---

(١) المرجع السابق .

(٢) الجامع الصحيح للترمذى (٣٩٥/٤) ط : الحلبى الحديث رقم ١٩٠٧ وفى لفظه (ومن قطعها بتته) أى قطعته .	(٣) تفسير القرطبى ١٠٤/١

نقل الألوسي عن الأعلم وابن مالك أن الرحمن علم في الأصل لا صفة ولا علم بالغلبة التقديرية . ومن ثم صحح الألوسي أن الرحمن والرحيم من أبنية المبالغة الملحقة باسم الفاعل وأخذاً من فعل متعد(١) والرحمة في اللغة رقة في القلب وانعطاف يقتضي التفضل والإحسان ومنه الرحم ، لانعطافها على ما فيها(٢) ولكون الرحمة ـ بهذا المعنى ـ من الكيفيات التابعة للمزاج المستحيل على الله تعالى : فإنها تؤخذ باعتبار غايتها وهي التفضل والإحسان .

وذلك إما بطريق المجاز المرسل بذكر لفظ السبب وإرادة المسبب.

وأما بطريق الاستعارة المصرحة ، بأن يشبه الاحسان ـ على ما اختاره الباقلاني ـ أو إرادته ـ على ما اختاره الأشعري (٣) بالرحمة ، بجامع ترتب الانتفاع على كل ، ويستعار له الرحمة ويشتق منها الرحمن والرحيم .

ومنطلق هذا التجوز ـ لدى القائلين به ـ أن أسماء الله تعالى تؤخذ باعتبار الغايات ـ التي هي أفعال ـ دون المبادىء التي هي انفعالات(٤) .

والاتجاه الحق الذي عليه إمامنا الأشعري ـ ورجحه شيخنا الألوسي ـ هو إجراء ما ورد من الصفات على حالها بلا كيف وعدم التعرض للتأويل فيها أو التجوز عند إثباتها لله عز وجل ، لأنها ـ حينئذ ـ صفة لائقة بكمال ذاته تعالى كسائر صفاته سبحانه، وتعالى الله عن أن تقاس صفاته بصفات خلقه

---

(١) انظر تفسير روح المعاني ١/٥٩ — ٦٠.

(٢) انظر أنوار التنزيل ١/٤ والكشاف ١/٤٤

(٣) صرح الامام الألوسي ـ بعد إثبات هـذا للأشعري ـ أن ما نقل عنه من تأويل صفة الرحمة إما غير ثابت أو مرجوع عنه إذ المحقق عنه عدم التجوز في الصفات وإجراؤها على حالها بلا كيف .

(٤) أنظر · الكشاف ١/٤٥ أنوار التنزيل ١/٤ ، إرشاد العقل السليم ١/٨

وبذا يمكن إثبات [illegible] في الفعل ... [illegible] يكون إثباتها لله تعالى — على الحقيقة — بالمعنى اللائق به عز وجـــل . ويكون الجهل بحقيقة الصفة كالجهل بحقيقة ذاته تعالى وما ذاك إلا لعزة كماله وكمال عزته ، ويكون العجز عن درك الإدراك إدراكا . أما عن الموازنة بين مدلولى : « الرحمن والرحيم » :

فإننا نجد عديداً من الأقوال والاتجاهات فى هذا الصـدد لأعلام المفسرين :

فالقاضى البيضاوى وأبو السعود يريان أن « الرحمن » فيه من البلاغة والمبالغة ما ليس فى « الرحيم » من حيث أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى .

وهذه الزيادة — عند البيضاوى — تؤخذ تارة باعتبار الكمية ، وعليه قيل : يارحمن الدنيـا — لأنه يعم المؤمن والكافر — ورحيم الآخرة — لأنه يخص المؤمن .

كما تؤخذ تارة أخرى باعتبار الكيفية . وعليه قيل : يارحمن الدنيا والآخرة — من حيث أن نعم الآخرة كلها جسام — ورحيم الدنيا — لأن نعم الدنيا منها ماهو جليل ومنها ماهو حقير . ثم علل الإمامان لتقدم « الرحمن » — بهذه المثابة — على « الرحيم » مع أن القياس الترقى من الأدنى إلى الأعلى : بأن رحمة الدنيا متقدمة على رحمة الآخرة ولأنه لاختصاصه به تعالى صار كالعلم (١) وأصبح حقيقا بأن يكون قريبا لإسم الذات الخاص

---

(١) ومن ثم قال بعضهم — فى مضمار الموازنة بين مدلول الإسمين — أن الرحمن خاص اللفظ عام المعنى — لاختصاصه به تعالى واشموله لرحمتى الدنيا والآخرة — والرحيم عام اللفظ لاطلاقه على غيره تعالى — خاص المعنى لاقتصاره على رحمة الدنيا . انظر تفسير الوسيط ١ / ٦٠ .

به سبحانه . ثم لأن الرحمن لما دل على جلائل النعم وأصولها ذكر أولا وأتبع بالرحيم ليتناول ما خرج منها من الدقائق والفروع فيكون كالتتمة والرديف له . قاله البيضاوي .

وفي المقابل ذهب فريق آخر إلى أن « الرحيم » أبلغ لتأخره في الذكر وأن ههنا ترقيا من الأدنى إلى الأعلى على القياس وفي هذا الاتجاه نقل الآلوسي عن الامام عبد الله بن المبارك ـ رضي الله عنه ـ أنه قال : « الرحمن إذا سئل أعطى ، والرحيم إذا لم يسأل غضب »(١) .

كذلك يقول الواحدي في تفسيره (البسيط) : ـ (وقال وكيع : الرحمن أشد مبالغة لأنه ينبيء عن رحمة في الدنيا والآخرة ، ورحمة الرحيمية في الدنيا دون الآخرة)(٢) وأيضاً يقول ابن كثير في تفسيره : (وقد زعم قوم أن الرحيم أشد مبالغة من الرحمن لأنه أكد به ، والتأكيد لا يكون إلا أقوى من المؤكد . والجواب : أن هذا ليس من باب التوكيد وإنما هو من باب النعت(٣) .

وثمة فريق ثالث يرى أن (الرحمن) و (الرحيم) بمعنى واحد كندمان ونديم وجيء بهما للتأكيد والإتباع كقولهم : جاد مجد(٤) . وقد أورد العلامة الآلوسي هذا الرأي بدليله فقال : (وقيل : هما سواء ، لظاهر الحديث الذي أخرجه الحاكم في المستدرك مرفوعا : ـ (رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما) وإليه ذهب الجويني وقرره بأن فلان لمن تكرر منه الفعل وكثر ، وفعيل لمن ثبت منه الفعل ودام)(٥) .

---

(١) أنظر روح المعاني ٦١/١
(٢) أنظر البسيط ١٦/١
(٣) أنظر تفسير ابن كثير ٣٦/١
(٤) أنظر البسيط ١٦/١
(٥) أنظر روح المعاني ٦١/١

هذا والفريقين الأخيرين رد على الأول القائل بأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى بأنها قاعدة أغلبية ـ غير مطردة ـ أسسها ابن جنى وقد نقضت بحذر فإنه أبلغ من حاذر رغم زيادة حروفه ، فلعلها لا تثبت معنا هنا أيضاً .

على أن هناك من العلماء من فرق بينهما بأن « الرحمن » دال على الصفة القائمة به تعالى ، و « الرحيم » دال على تعلقها بالمرحوم . فكان الأول للوصف والثانى للصفة المتعلقة بالغير كما فى قوله تعالى (وكان بالمؤمنين رحيماً)(١)

وأما التفسير الأثرى النقلى لهذين الإسمين الجليلين ـــ خلاف ما ورد فى ثنايا المباحث السالفة ـــ فقد أورد ابن جرير الطبرى بسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن عيسى بن مريم قال : الرحمن رحمن الآخرة والدنيا والرحيم رحيم الآخرة » .(٢)

كذلك روى الطبرى وابن عطية عن العرزمى(٣) قال : الرحمن بجميع خلقه فى الأمطار ونعم الحواس والنعم العامة ، والرحيم بالمؤمنين فى الهداية لهم واللطف بهم(٤) .

وروى الواحدى والقرطبي عن الإمام ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : هما إسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر ـ أى أكثر رحمة ـ ،

---

(١) سورة الأحزاب /٤٣

(٢) أنظر تفسير الطبرى ٥٦/١ ط : الحلبى .

(٣) كذا هو فى القرطبى ١٠٥/١ وترجم بهامشه أنه هو عبد الملك بن أبى سليمان العرزمى كما فى الخلاصة . وفى البحر المحيط ذكره أبو حيان بقوله : وقال العرزمى وأورد عنه هذا التفسير جـ ١ ص ١٧

(٤) أنظر الطبرى ٥٥/١ ، والمحرر الوجيز ٩٧/١ واللفظ منه .

وتعقبه الحسين بن الفضل قائلا : غلط الراوى لأن الرقة فى صفة البارى لاتصح ، وإنما هما إسمان رفيقان أحدهما أرفق من الآخر يدل على هذا ما روى فى الخبر «إن الله رفيق يحب الرفق ويعطى على الرفق مالا يعطى على العنف » (١)) (٢) .

ثم لقد أضاف القرطبي فى تفسير الرحيم وجهاً - للوجوه - نقله عن بعض العارفين فقال : (وقيل أن معنى الرحيم : أى بالرحيم وصلتم إلى الله وإلى الرحمن . فالرحيم نعت محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد نعته الله بذلك فقال : « رءوف رحيم » ، فكان المعنى أن يقول : بسم الله الرحمن وبالرحيم ، أى وبمحمد صلى الله عليه وسلم وصلتم إلى . أى باتباعه وبما جاء به وصلتم إلى ثوابى وكرامتى والنظر إلى وجهى . والله أعلم) (٣) .

ولم يكن هذا الوجه الأخير ضربا من التخمين المغوى أو التأويل الفاسد كما يتوهمه المحجوبون وإنما هو تفسير إشارى يلهم به العارفون ، وقد أكده الإمام العارف الألوسى فى تفسيره بالطف وأروع بيان فقال :

« وعندى من باب الإشارة : أن تأخير « الرحيم » لأنه صفة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم قال تعالى : (بالمؤمنين رؤوف رحيم) ، وبه عليه السلام كمال الوجود . وبالرحيم تمت البسملة ، وبتمامها تم العالم خلقا وإبداعا وكان صلى الله عليه وسلم . مبتدأ وجود العالم عقلا ونفسا ، فبه بدىء الوجود باطنا ، وبه ختم المقام ظاهراً فى عالم التخطيط فقال : لارسول بعدى) (٤)

---

(١) رواه ابن ماجة عن أبى هريرة فى باب الرفق من كتاب الأدب ١٢١٦/٢

(٢) انظر البسيط الواحدى ١٦/١ ، وتفسير القرطبى ١٠٥/١ — ١٠٦

(٣) المرجع السابق .

(٤) روح المعانى ٦٣/١ — ٦٤

وأضيف للبيان والتبيين، أن هذا النمط الرفيع من التفسير - وهو التفسير الاشارى(١) لانورده على أن التفسير الظاهر للقرآن الكريم بل على أنه معان وإشارات الهامية تنزل على قلوب الأولياء العارفين بالله مع تطبيق الظواهر التفسيرية الاصطلاحية. وقد حقق العلماء قبول هذا اللون العرفانى من التفسير شريطة ألا ينافى ظاهر النظم القرآنى ، وأن يكون له شاهد شرعى يؤيده وألا يكون له معارض شرعى أوعقلى.

ثم نختتم الحديث فى البسملة المباركة ببيان حكمة تضمنها الأسماء الشريفة الثلاثة. يقول حكيم المفسرين فخر الدين الرازى : (الحكمة فى ذكر هذه الأسماء الثلاثة أن المخاطبين فى القرآن ثلاثة أصناف كما قال تعالى : (فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات . .)(٢) .

فقال أنا الله للسابقين ، الرحمن للمقتصدين . الرحيم للظالمين . وأيضاً : الله هو معطى العطاء ، والرحمن هو المتجاوز عن زلات الأولياء ، والرحيم هو المتجاوز عن الجفاء - ثم قال : الله يوجب ولايته قال الله تعالى : والله ولى الذين آمنوا . والرحمن يوجب محبته قال الله تعالى : إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا ، والرحيم يوجب رحمته

---

(١) يعرف التفسير الصوفى الفيضى أو الاشارى بأنه : (هو تأويل الآيات القرآنية على خلاف مايظهر منها بمقتضى إشارات خفية تظهر لأرباب السلوك ويمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة) وله أصل شرعى عند العلماء. فن القرآن من قوله تعالى : (أفلايتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) ومن السنة من قوله صلى الله عليه وسلم (أن القرآن ظهرا وبطنا وحدا ومطلعا) خرجه العراقى عن ابن حبان وصححه. وللاستزادة فى هذا الموضوع انظر : التفسير والمفسرون للدكتور الذهبى ١٨/٣ وكتابنا الواحدى ومنهجه فى التفسير) .

(٢) سورة فاطر ٣٢.

« وكان بالمؤمنين رحيما » (١) ويقول الإمام المحقق البيضاوى:

« وإنما خص التسمية بهذه الأسماء : ليعلم العارف أن المستحق لأن يستعان به فى مجامع الأمور هو المعبود الحقيق الذى هو مولى النعم كلها عاجلها وآجلها جليلها وحقيرها فيتوجه بشراشره إلى جناب القدس ، ويتمسك بحبل التوفيق ، ويشغل سره بذكره والاستمداد به عن غيره »(٢) .

« يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم » .

جاء صدر هذه السورة الكريمة عنوانا دالا متضمنا الأمهات موضوعاتها التى أسلفناها وهى . الايمان والالتزام الكامل بالكتاب والسنة الشريفين، وتقوى الله تعالى فتلك هى مجامع كمالات العقيدية والسلوكية والأخلاقية . وهى أمهات الآداب الربانية والمبادىء القرآنية المثلى ، ولذلك يقول القرطبي

---

(١) مفاتيح الغيب ١/٨٨

(٢) أنوار التنزيل ١/٥ .

فى فاتحة تفسير هذه السورة الكريمة . « فالسورة فى الأمر بمكارم الأخلاق ورعاية الآداب »(١) .

وقد صدر الخطاب فى مطلع السورة الكريمة بالنداء : تنبيها للمخاطبين على أن ما فى حيز هذا النداء أمر خطير يستدعى إقبالهم ومزيد اعتنائهم بشأنه ، وفرط اهتمامهم بتلقيه ومراعاته .

وقد جاء نداؤهم بالوصف الايمانى للإيذان بأن مجانبة المنهى عنه وتحقيق المأمور به فى الآية الكريمة إنما هو من مقتضيات الإيمان ومستلزماته التى لا يكتمل بدونها ، والإيمان فى اللغة هو التصديق ، وهو مأخوذ من الأمن .

أما الإيمان فى الشرع ، فهو تصديق النبى ﷺ بالقلب فى كل ما جاء به وعلم من الدين بالضرورة .

والايمان عند جمهور السلف مجموع أمور ثلاثة : إعتقاد بالجنان ونطق باللسان وعمل بالأركان . فلابد فيه من اعتقاد الحق عقلا وقلبا ، والنطق به لسانا ، والعمل بمقتضاه بأركان القوى والجوارح التى هيأها الله تعالى له .

وأما قوله تعالى : « لاتقدموا . . . » ففيه وجهان : أولهما : أن يكون الفعل من التقديم فيكون متعديا ، ويكون حذف المفعول لأحد أمرين أحدهما : تنزيل الفعل منزلة اللازم فيكون المقصود هو النهى عن التلبس بأصل الفعل الذى هو التقديم أصلا بقطع النظر عن المفعول . كما فى قوله تعالى (يحيى ويميت) أى يفعل الإحياء والإماتة .

---

(١) أنظر تفسير القرطبى ١٦/ ٣٠٠

وثانيهما . أن يكون حذف الفعل للقصد إلى تعميمه لكل فعل وأمر بحيث لا يخص واحدا دون آخر .

والمعنى على الأول : لا تفعلوا التقديم ولا تتلبسوا به أصلا .

وعلى الثاني . لا تقدموا أمرا من الأمور ولا فعلا من الأفعال على حكم الله ورسوله .

وأما الوجه الثاني في (تقدموا) : فهو أن يكون الفعل من التقدم فيكون لازما ، ويؤيد هذا الوجه ، قراءة الامام ابن عباس - رضى الله عنهما - ويعقوب . « لا تقدموا » - بفتح التاء والقاف والدال المشددة - وأصل الفعل على هـذا « تتقدموا » فحذفت إحدى التاءين تخفيفا والقراءتان متحدتان في المعنى على تقدير : لا تقدموا أنفسكم في حضرة النبي ﷺ : أي : لا تجعلوا لأنفسكم تقدما ورأيا عنده(١) .

وثمة قراءة ثالثة . هي : « لا تقدموا » — بفتح التاء وسكون القاف وضم الدال — من القدوم(٢) .

وقوله تعالى : (بين يدى الله ورسوله) : بمعنى : بحضرتهما ، لأن ما بحضرة الإنسان فهو بين يديه ، وهو منظورة ونصب عينيه . وقيل أنه المراد : بين يدى رسول ﷺ فيكون ذكر (الله) تعظيم له ﷺ وإشعار بأنه من الله بمكان يوجب إجلاله .

---

(١) أنظر مفاتيح الغيب للإمام فخر الدين الرازي ٥٥٩/٧

(٢) على هذه القراءة يكون في الكلام استعارة ، حيث شبه تعجيلهم في قطع الحكم في أمر من أمور الدين بقدوم المسافر من سفره ، لما فيه من العزم وشدة الرغبة .

وقد ذكر المفسرون أن في قوله سبحانه (لا تقدموا بين يدي الله ورسوله) تجوزين :

الأول : بإطلاق ما بين اليدين وإرادة ما يقابلهما ويجاورهما ويسامتهما من المقابلتين لليمين والشمال(١) .

والثاني : إطلاق التقدم بين اليدين وإرادة القطع بالحكم في الأمور بلا اقتداء ، ومتابعة لمن يلزم متابعته(٢) .

وقد أثر عن السلف رضوان الله عليهم في تفسير قوله تعالى « لا تقدموا بين يدي الله ورسوله » .

أقوال وضاءة نذكر من بينها :

(أ) قول الإمام عباس — رضي الله عنهما — في رواية علي بن أبي طلحة : « لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة » . وفي رواية أخرى عنه — ذكرها القرطبي — قال « نهوا أن يتكلموا بين يدي كلامه ﷺ » .

(ب) قول الإمام مجاهد — رضي الله عنه — « لا تفتاتوا(٣) على الله ورسوله حتى يقضي الله على لسان رسوله » ﷺ .

---

(١) في هذا الإطلاق مجاز مرسل .

(٢) في هذا التعبير القرآني استعارة تمثيلية حيث شبهت حالة من يجري على اقتحام الأمور قبل حكم الله ورسوله ودون التقيد بشرعهما بصورة هي حالة تقدم الخادم بين يدي سيده في مسيره ، وذلك بجامع ما في الصورتين من الهجنة والشناعة .

(٣) يقال : إفتات الكلام : ابتدعه ، وافتات عليه في الأمر حكم عليه ، وافتات برأيه : استبد به .

(جـ) وقال الإمام الضحاك — رضى الله عنه — «لاتقضوا أمراً دون الله ورسوله من شرائع دينكم».

(د) وقال الإمام سفيان الثورى — رضى الله عنه — «لاتقدموا بين يدى الله ورسوله. بقول ولا بفعل. اهـ

(هـ) وقال ابن جريج — رحمه الله —: «لاتقدموا أعمال الطاعات قبل وقتها الذى أمر الله تعالى به ورسوله ﷺ»(١).

وخلاصة تلك الأقوال:

أن هذه الآية الكريمة تعنى: وجوب الاقتداء الكامل بالنبى الكامل ﷺ وتحقيق متابعته الصادقة فى كل ما جاء به عن ربه تعالى والسير على منهاج سنته الغراء، والتأسى به ﷺ.

وبمعنى مرادف: أن الآية الكريمة تحث على الالتزام الكامل والمطلق بالكتاب والسنة فى جميع الأقوال والأفعال والأحوال، بحيث لايشذ شىء من ذلك عن منهاج الوحيين النيرين، فذلك مقتضى الإيمان الحقيقى بالله ورسوله ﷺ.

وقد ورد فى سبب نزول هذه الآية الكريمة عدة روايات تجلى تفسيرها، أصحها ما رواه — البخارى — بسنده — عن ابن أبى مليكة أن عبد الله ابن الزبير أخبرهم أنه قدم ركب من بنى تميم على النبى ﷺ فقال أبو بكر: أمر القعقاع بن معبد. وقال عمر: بل أمر الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر:

---

(١) أنظر هذه التفاسير المأثورة فى تفسير القرطبى ٣٠١/١٦ وتفسير ابن كثير ٧/٤٥٠

ما أردت إلى — أو إلا — خلافى فقال عمر : ما أردت خلافك ، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما فنزل فى ذلك « يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله . . . » حتى انقضت الآية »(١) .

وسبب آخر للنزول يروى عن الإمام الحسن — رضى الله عنه — أن الآية الكريمة نزلت فى قوم ذبحوا قبل أن يصلى رسول الله ﷺ ، فأمرهم أن يعيدوا الذبح ، وثمة روايات أخرى(٢) .

ومن أسرار النظام القرآنى المعجز — فى الآية الكريمة — ما ذكره الإمام الفخر الرازى عليه سحائب الرضوان : — من أن عبارة « بين يدى الله ورسوله » : تقرر النهى المتقدم كما تقرر الأمر المتأخر — وهو الأمر بالتقوى — .

أما تقريرها للنهى عن التقدم على الله ورسوله : فمن حيث أن العبد بين يدى سيده يكون حاضراً أمامه وفى قبضة قدرته وذلك مما يوجب احتراز العبد من التقدم على سيده فى أى أمر من الأمور حتى لا ينال عقابه ، ولاسيما أن إطلاق اليدين فى حقه تعالى أنباء عن قدرته التى لا تحد ولا تتناهى .

وأما تقرير عبارة « بين يدى الله ورسوله » للأمر بالتقوى : فمن حيث أن من يكون دائما بين يدى مولاه لا يغيب عنه طرفة عين وهو فى جميع تقلباته فى قبضته فإنه لجدير بأن يتقيه ولا يعصيه ، وأن يخافه ويراقبه فى أموره كلها .

---

(١) أنظر صحيح البخارى ١٢٨/٣ ط محمد عبد اللطيف .

(٢) أنظر تفسير القرطبى ١٦ ٣٠

والتقوى : — فى اللغة — مأخوذة من الوقاية ، وهى الحفظ والصيانة .

وفى عرف الشرع : هى : (التجنب عن كل ما يؤثم من فعل أو ترك)(١) .
فهى كما قال الإمام الجنيد — رضى الله تعالى عنه — : (أن لا يراك الله حيث نهاك . ولا يفقدك حيث أمرك) أو كما روى عن الإمام ابن مسعود — رضى الله عنه — هى : (أن يطاع الله فلا يعصى وأن يذكر فلا ينسى . وأن يشكر فلا يكفر) .

وبتوافر التقوى إلى جانب الإيمان تتحقق للعبد ولاية الله تعالى كما قال جل شأنه « ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون ، لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة . لاتبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم »(٢) .

ومن ثم تكون الآية الأولى من « سورة الحجرات » قد تضمنت مقومات الولاية لله عز وجل ; ولا ريب أنه إذا تأسس بنيان المجتمع الإسلامى على أساس الولاية لله تبارك وتعالى : فإنه يكون مجتمعا ربانيا مثاليا .

ثم يأتى قوله تعالى : « أن الله سميع عليم » بإفادة : الرقابة الإلهية على عقيدة الإنسان وسلوكه قولا وفعلا ، فمناط التكليف للعبد يتمثل فى الاعتقادات والأقوال والأفعال ، وقد أفاد الخطاب بقوله سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا » تحقيق الاعتقاد الإيمانى القلبى كما أفاد النطق اللسانى به . إذ هو مبنى على قولهم آمنا بالله وبرسوله ﷺ . ثم إن جانب الفعل

(١) أنظر تفسير البيضاوى ١٣/١

(٢) سورة « يونس » / ٦٢ — ٦٤

شطران : ظاهر وباطن ، فالفعل — المكلف به العبد ظاهرا : عدم التقدم بين يدى الله ورسوله ، والفعل المكلف به باطنا : أن يتق الله تعالى بقلبه وضميره .

من ثم فإن جانب الأقوال مراقب بسمع الله تعالى ، وجانب الاعتقادات والأفعال الباطنة وكذا جانب الأفعال الظاهرة مراقبان بعلم الله سبحانه وتعالى ، فلا يند شيء من أمور العبد عن هيمنة الحق تبارك وتعالى ، كل ذلك مستفاد من ختم الآية المباركة « إن الله سميع عليم » . وهكذا تعطينا الآية الأولى توجيهات ربانية بضرورة العمل بالشريعة ومتابعة النبي ﷺ .

« يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون » .

* * *

تضمنت هذه الآية الكريمة : الأدب الثاني الذي أدب الحق تعالى به عبادة المؤمنين في حق النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه . فمع الالتزام الكامل بشرع النبي ﷺ وعدم التقدم عليه بالقول أو بالفعل : نهانا الحق تعالى : أن ترفع أصواتنا فوق صوت النبي وأن نجهر له بالقول كما يجهر بعضنا لبعض . فهى إذا مكملة لسابقتها فى سمط الآداب الربانية . وهذا وقد اشتركت الآيتان الكريمتان فى سبب النزول أيضا .

فقد روى البخاري بسنده عن أبي مليكة قال :

« كاد الخيران أن يهلكا ، أبا بكر وعمر رضى الله عنهما ، رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم ركب بنى تميم ، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخى بنى مجاشع ، وأشار الآخر برجل آخر — قال نافع : لا أحفظ

اسمه فقال أبو بكر لعمر : ما أردت إلا خلافى ، قال : ما أردت خلافك . فارتفعت أصواتهما فى ذلك ، فأنزل الله « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم . . . » الآية ، قال ابن الزبير : فما كان عمر يسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه ، ولم يذكر ذلك عن أبيه — يعنى أبا بكر — »[١] اهـ

وقد نهى الله تعالى عن رفع الصوت عند كلام النبي ﷺ ، لأن رفع الصوت دليل على قلة الاحتشام وافتقاد الاحترام ، وقد علل الحكماء لذلك بأن من خشى قلبه حصل له الارتجاف ، وضعفت حركته الدافعة ، فلا يخرج منه الصوت بقوة ، ومن افتقد الخشية والخوف : ثبت قلبه وقوى ، من ثم يكون رفع الهواء دليل على عدم الخشية .

ثم يأتى قوله سبحانه : « ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض » نهيا عن المساواة مع النبي ﷺ : إثر النهى عن المجاوزة فى رفع الصوت ، وذلك لأن للنبى ﷺ سيد الأمة فينبغى أن يعامل على هذا الأساس ، بل إن الإمام الفخر الرازى — قدس الله سره — قد قرر فى تفسيره ، وجوب أن يعامل النبي ﷺ من أمته بتعظيم واحترام يفوقان تعظيم واحترام العبد لسيده ، فيقول : — « إن هذا قد أفاد أنه لا ينبغى أن يتكلم المؤمن عند النبي عليه السلام كما يتكلم العبد عند سيده ، لأن العبد داخل تحت قوله : « كجهر بعضكم لبعض » . لأنه للعموم . فلا ينبغى أن يجهر المؤمن للنبى ﷺ كما يجهر العبد للسيد ، وإلا لكان قد جهر له كما يجهر بعضكم لبعض . . . »[٢] .

---

(١) أنظر صحيح البخارى ٣/١٢٧ — ١٢٨ ط محمد عبد اللطيف .

(٢) أنظر مفاتيح الغيب للإمام الرازى ٧/٥٦١

والكاف في قوله تعالى : «كجهر بعضكم» في محل النصب صفة للمصدر المحذوف والتقدير لا تجهروا له جهرا مثل جهر بعضكم لبعض .

قال الإمام القرطبي : «وفي هذا دليل على أنهم لم ينهوا عن الجهر مطلقا ، حتى لا يسوغ لهم إلا أن يكلموه بالهمس والمخافتة . وإنما نهوا عن جهر مخصوص مقيد بصفة أعني : الجهر المنعوت بمماثلة ما قد اعتادوه منهم فيما بينهم . وهو الخلو من مراعاة أبهة النبوة وجلالة مقدارها ، وانحطاط سائر الرتب وإن جلت عن رتبتها . . »(١) .

ثم يقول عليه الرضوان . «معنى الآية . الأمر بتعظيم رسول الله ﷺ وتوقيره ، وخفض الصوت بحضرته وعند مخاطبته ، أي إذا نطق ونطقتم . فعليكم ألا تبلغوا بأصواتكم وراء الحد الذي يبلغه بصوته ، وأن تغضوا منها بحيث يكون كلامه غالبا لكلامكم ، وجهره باهرا لجهركم ، حتى تكون مزيته عليكم لائحة وسابقته واضحة ، وامتيازه عن جمهوركم كشية الأبلق ، لا أن تغمروا صوته بلغطكم وتبهروا منطقه بصخبكم»(٢) .

وثمة وجه آخر في تفسير قوله تعالى . «ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض» . نص عليه جهابذة من المفسرين كالإمام الطبري والقرطبي والبيضاوي وغيرهم فقالوا . إن معناه لا تخاطبوه باسمه وكنيته كما يخاطب بعضكم بعضا فتقولوا . يا محمد ، يا أحمد ولكن خاطبوه بالنبي وبالرسول ، فقولوا . يا نبي الله . يا رسول الله . توقيرا له وتعظيما(٣) .

---

(١) أنظر تفسير القرطبي ١٦/٣٠٦

(٢) نفس المصدر .

(٣) انظر نفس المصدر ص ٣٠٦ وتفسير البيضاوي ٢ / ٤٢٣

ولعمرى أن هذا الأدب الربانى ليفتقده الكثيرون من أهل عصرنا حتى إننا لنجد بعض العلماء فى مؤلفاتهم وأحاديثهم يقولون : كان محمد كذا وكذا بمنتهى الجفاف وغلظة الطبع فلا يقرنون اسمه الشريف بما يدل على التقدير والتبجيل الواجبين لحضرته ﷺ ، وأوغل من ذلك أن يطلع بعضهم بمقولة : أنه لا يجوز أن يقرن اسمه ﷺ بلفظ السيادة فيحرمون أن يقال « سيدنا محمد » بحجة أن السيادة لله وحده !! وهذا العمرى جهل فاضح ونزغة شيطانية ضالة مضلة ، ألم يقل الله تعالى فى حق سيدنا يحيى على نبينا وعليه السلام « . . ان الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين[1] » .

أو لم يقل النبى ﷺ : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مشفع[2] » .

أو لم يقل النبى ﷺ للأنصار حين قدم عليهم سيدنا سعد بن معاذ رضى الله عنه (قوموا إلى سيدكم[3] . وغير ذلك من أدلة التأدب مع ذوى الجاه الرفيع عند الله تعالى . فكيف يتأتى لمسلم أن يمنع مسلماً من التأدب مع سيدنا رسول الله ﷺ فى مخاطبته وقد قال الله تعالى : « لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً[4] » .

لقد علمنا الله تعالى فى سورة الحجرات كيف نتأدب مع نبيه الأكرم ﷺ الذى أخرجنا به من الظلمات إلى النور . وأحيا به أموات القلوب ، وجاءنا بالحق والهدى ودلنا على الصراط المستقيم .

---

(١) سورة آل عمران / ٣٩ .

(٢) رواه مسلم وأبو داود وخرجه عنها صاحب الفتح الكبير ١/ ٢٧٤ ط/ الحلبى

(٣) رواه البخارى فى باب مناقب سعد بن معاذ رضى الله عنه ٢ / ٢٠٨ طه محمد عبد اللطيف .

(٤) سورة النور / ٦٣

واستيحاء من دلالة النص القرآني في الآية الكريمة: قال الإمام القرطبي في تفسيره: «وقد كره بعض العلماء رفع الصوت عند قبره عليه السلام، وكره بعض العلماء رفع الصوت في مجالس العلماء تشريفاً لهم. إذ هم ورثة الأنبياء»[1].

ثم نقل عن أبي بكر بن العربي أنه قال: «حرمة النبي ﷺ ميتاً كحرمته حياً وكلامه المأثور بعد موته في الرفعة: مثل كلامه المسموع من لفظه، فإذا قرىء كلامه وجب على كل حاضر ألا يرفع صوته عليه. ولا يعرض عنه، كما كان يلزمه في مجلسه عند تلفظه به، وقد نبه الله سبحانه على دوام الحرمة المذكورة على مرور الأزمنة بقوله تعالى: «وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وانصتوا»[2]، وكلامه ﷺ من الوحي وله من الحكمة مثل ما للقرآن، إلا معاني مستثناه، بيانها في كتاب الفقه»[3].

هكذا تمثل علماء الأمة حرمة ذات نبيهم ﷺ وحرمة كلامه الشريف.

ثم بين الحق — تعالى شأنه — عاقبة من يلتزم الأدب في حقه — ﷺ — ولم يعظم حرمته عليه السلام بقلبه وقالبه وبفعله وقوله، فقال جل شأنه: —

(أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون): فقوله (أن تحبط) في محل النصب مفعول لأجله، وقع تعليلا للنهيين السابقين فيه مضاف مقدر،

---

(١) أنظر تفسير القرطبي ١٦ / ٣٠٧.

(٢) سورة الأعراف / ٢٠٤.

(٣) أنظر تفسير القرطبي ١٦ / ٣٠٧.

والمعنى : إنى أنهاكم عن رفع صوتكم فوق صوت النبى وعن الجهر له بالقول لكراهة حبوط أعمالكم بارتكاب ذلك .

ويجوز جعل المصدر الواقع مفعولا لأجله - وهو : (أن تحبط) - : تعليلا للفعل المنهى عنه - وهو الرفع والجهر - فتقدر لام العاقبة ، على معنى : لا ترفعوا أصواتكم ولا تجهروا لأجل حبوط أعمالكم : فإن الرفع والجهر لما كانا مؤديين إلى الحبوط وكان الحبوط عاقبة لهما ، اعتبر فعلهما علة له(١) .

وحبوط الأعمال : هو بطلان ثوابها وقوله تعالى (وأنتم لا تشعرون) : حال من فاعل (تحبط) ، والمعنى : خشية حبوط أعمالكم حالة عدم شعوركم أنها محبطة ، فمفعول (تشعرون) محذوف بقرينة ما قبله .

وأخيرا : يذكر العلماء(٢) أن المراد فى الآية الكريمة : النهى عن رفع الصوت والجهر المذكورين مطلقا ، وذلك حذرا من إيذاء النبى صلى الله عليه وسلم الذى يبلغ مبلغ الكفر المحبط للأعمال باتفاق العلماء ، فورد النهى عما هو مظنة لأذى النبى صلى الله عليه وسلم سواء وجد معنى الإيذاء بالاستخفاف ونحوه ، أو لم يوجد ، حماية للذريعة وحسما المادة .

بيان بعض مظاهر الأثر العملى لنزول هذه الآية الكريمة :

قمة الأدب مع سيدنا رسول صلى الله عليه وسلم تمثلت فى أجلاء الصحابة رضوان الله عليهم أثر نزول هذه الآية الكريمة ، إيمانا وتصديقا وسلوكا

---

(١) على هذا تكون لام التعليل المقدرة قبل المفعول لأجله مستعارة للعاقبة (حاشية الشهاب ٧٢/٨) .

(٢) نقل ذلك عن ابن المنير : الإمام الألوسى فى تفسيره : ١٣٦/٢٦

وتصديقه . وروى الحافظ بن كثير — في تفسيره — عن الحافظ البزار بسنده عن سيدنا أبي بكر الصديق — رضي الله تعالى عنه — قال : ولما نزلت هذه الآية : « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي . . . » ، قلت : يا رسول الله ، والله لا أكلمك إلا كأخي السرار »(١) .

وفي رواية الحاكم عن أبي هريرة عن سيدنا أبي بكر رضي الله عنهما قال : « والذي أنزل عليك الكتاب يا رسول الله لا أكلمك إلا كأخي السرار حتى ألقى الله تعالى »(٢) .

وقد روى البخاري وغيره عن ابن الزبير رضي الله عنه أن سيدنا عمر ابن الخطاب — رضي الله عنه — بعد نزول هذه الآية : ما كان يسمع رسول الله ﷺ حتى يستفهمه »(٣) .

كما روى الإمام البخاري — رضي الله عنه — بسنده أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس ، فقال رجل : يا رسول الله ، أنا أعلم لك علمه ، فأتاه فوجده جالسا في بيته فقال له : ما شأنك ؟؟ قال : شر . كان يرفع صوته(٤)

---

(١) أي كصاحب المسارة ، أو كمثل المسارة بخفض صوته .

(٢) أنظر روح المعاني للإمام الألوسي ١٣٥/٢٦

(٣) أنظر صحيح البخاري ١٣٨/٣ ط محمد عبد اللطيف .

(٤) ذكر الإمام البخاري — نقلا عن الرواة — أن ثابت بن قيس كان في أذنه وقر ، كان جهوري الصوت ، وقد عبر الراوي — في رواية البخاري — بصيغة الغيبة فقال « كان يرفع صوته » تحاشيا من نقل الكلام بصيغة التكلم لما فيه من [illegible]

فوق صوت النبي ﷺ ، فقد حبط عمله ، وهو من أهل النار ، فأتى الرجل النبي ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا — فقال موسى[1] — : فرجع إليه المرة الآخرة ببشارة عظيمة .

فقال اذهب إليه فقل له : « إنك لست من أهل النار ، ولكنك من أهل الجنة » !!

ثم يأتي قوله تعالى :

« إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم » .

للترغيب في الانتهاء عما نهوا عنه من رفع الصوت والجهر السالفين بعد الترهيب عن الإخلال به .

والمراد بغض الأصوات : خفضها مراعاة للأدب وخشية من مخالفة النهي .

روى الإمام الواحدي — في كتاب أسباب النزول — عن الإمام ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : أنه قال :

« لما نزل قوله تعالى : « لا ترفعوا أصواتكم . . . تالى »[1] أبو بكر أن لا يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا كأخي السرار ، فأنزل الله تعالى في أبي بكر : « إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله . . »[2].

---

(١) هو موسى بن أنس راوي الحديث عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنهما . أنظر صحيح البخاري ١٢٨/٢

(١) تالى : أي حلف .

(٢) أنظر : أسباب النزول بتحقيق السيد صقر /٤٠٨

فمن سبب النزول يعلم أن الآية الكريمة نزلت فيمن راعوا الأدب مع سيدنا رسول الله ﷺ فى حضرته وعند مخاطبته ، ويدخل الشيخان الجليلان — سيدنا أبو بكر وسيدنا عمر رضوان الله عليهما - دخولا أوليا فيمن امتدحهم الآية الكريمة بهذا الأدب الرفيع .

وقوله تعالى : «أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى» :

خبر (إن) التى صدرت بها الآية الكريمة . ومرجع الإشارة — فى أولئك — : هو الموصول المتقدم (الذين) ، باعتبار اتصافه بما فى حيز صلته .

وسر التعبير باسم الإشارة الموضوع للبعيد - رغم قرب العهد بالمشار إليه - إنما هو تفخيم شأنه وإفادة بعد منزلته فى السمو والرفعة .

و (أولئك) مبتدأ ، خبره : (الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى) .

وقد أفاد تعريف كل من المبتدأ والخبر : قصر المسند - الذى هو الخبر الموصول بما اشتملت عليه صلته - على المسند إليه (وهو المبتدأ) ، ومفاد ذلك : أن الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى هم فقط أولئك الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله وحدهم لا غيرهم فمن لم يتحقق بهذا الأدب مع رسول الله ﷺ فإن قلبه لم يمتحن للتقوى - ولم يخلص لها .

ومن ثم : تضع لنا هذه الآية الكريمة مقياسا قرآنيا لتحقق التقوى فى قلب المؤمن .

وأما تفسير الامتحان فى قوله تعالى (. . امتحن الله قلوبهم للتقوى) :- فقد تعددت فيه وجوه أقوال المفسرين تبعا لتعدد المعانى اللغوية لمادة (المحن) ومشتقاتها على هذا النحو :-

١ — قال القرطبي ـ نقلا عن أهل اللغة ـ : « والامتحان : افتعال من محنت الأديم محنا حتى أوسعته . فمعنى « امتحن الله قلوبهم للتقوى » : وسعها وشرحها للتقوى ، وهذا وجه متفرع عن حقيقة المعنى اللغوى للفظة (١) .

٢ — ومن معانى الامتحان فى اللغة : الضرب بالمحن وهى ما يشق على الإنسان(٢) ، وعلى هذا يكون المعنى فى الآية الكريمة : ضرب الله قلوبهم بأنواع المحن والتكاليف الشاقة لأجل أن تظهر فيهم التقوى باصطبارهم على تلك المحن .

فالامتحان ههنا ـ على هذا ـ على حقيقته اللغوية واللام للتعليل(٣) .

٣ — ومن المعانى اللغوية للامتحان أيضا : التجربة والاختبار . ولما كان إسناد الامتحان بهذا المعنى إلى الله تعالى غير جائز فى حقه سبحانه ، لأن الامتحان يكون لمن لم يعرف المختبر فيفعله ليعرفه ـ كان المراد بالامتحان فى الآية الكريمة :

---

(١) أنظر تفسير القرطبى : ٣٠٩/١٦ ، وانظر المادة اللغوية فى لسان العرب ٢٨٨/١٧

(٢) قال صاحب اللسان (٢٨٧/١٧) : « وأصل المحن : الضرب بالسوط » .

(٣) أنظر تفسير البيضاوى بحاشية الشهاب : ٧٢/٨

التمرين والصبر (١) :

والمعنى : أن الله تعالى قد مرن قلوبهم للتقوى وصبرهم وعودهم عليها.

٤ — الوجه التفسيري الرابع للامتحان في الآية الكريمة : أنه بمعنى الإخلاص والتصفية وذلك على سبيل الاستعارة من قولهم : امتحن الذهب، إذا أذابه وميز إبريزه — أي خالصه — من خبثه، أو من : منحت الفضة، إذا صفيتها وخلصتها بالنار (٢).

والمعنى : أن الله تعالى قد أخلص قلوبهم للتقوى ومحضها لها حتى كان تلك — القلوب قد صارت ملكا للتقوى فلم يعد لغير التقوى فيها حظ.

وقد أثر تفسير الامتحان بالإخلاص عن أئمة من السلف كمجاهد، وقتادة القائل في تفسير « امتحن الله قلوبهم » : — « أخلص الله قلوبهم فيما أحب » (٣).

---

(١) فالامتحان ههنا : إما مجاز عن الصبر بعلاقة اللزومية، وإما هو كناية تلويحية عن الصبر والاحتمال مع التجوز في الاسناد إلى الله تعالى أيضا الدلالة على التمكن، ويكون أصل الكلام : امتحنوا قلوبهم للتقوى بتمكين الله لهم. وإنما كنى عن الصبر بالامتحان، لأن الممتحن يعود للفعل مرة بعد أخرى فيكون له صبر وقوة عليه كما يجوز أيضا أن يكون اطلاق الامتحان مجازا مرسلا عن المعرفة — لأنه سببها — والمعنى، أنه تعالى عرف قلوبهم كائنة للتقوى وخالصة لها فاللام في (للتقوى) متعلقة بمحذوف (أنظر حاشية الشهاب ٧٣/٨).

(٢) أنظر المصدر السابق، ولسان العرب ٢٨٧/١٧

(٣) أنظر تفسير الطبري ٢٦/ ١٢٠ ط الحلبي، والدر المنثور ٨٦/٦

كما روى — فى تفسيرها عن سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : « أذهب عن قلوبهم الشهوات » .

وعن الإمام ابن عباس — رضى الله عنهما — أنه قال : « امتحن الله قلوبهم للتقوى » — طهرهم من كل قبيح ، وجعل فى قلوبهم الخوف من الله والتقوى »[1] .

وروى الإمام أحمد — فى كتاب الزهد — بسنده عن مجاهد رضى الله عنه أنه قال : كتب إلى عمر : يا أمير المؤمنين ، رجل لايشتهى المعصية ولا يعمل بها أفضل ؟ أم رجل يشتهى المعصية ولا يعمل بها ؟؟

فكتب عمر رضى الله عنه : — إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها : « أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم »[2] .

ولقد جمع الإمام الفخر الرازى — رضوان عليه — فى تفسير هذه العلية الكائنة بين السبب والمسبب فى الآية الكريمة — أى بين تحقق التقوى فى القلب وبين تعظيم النبى ﷺ : ومراعاة الأدب مع جنابه الشريف فقال :

« . . امتحنها ليعلم منها التقوى ، فإنه من يعظم واحدا من أبناء جنسه لكونه رسول مرسل ، يكون تعظيمه المرسل أعظم ، وخوفه منه أقوى ، وهذا كما فى قوله تعالى : « ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب »[3] أى : تعظيم أوامر الله من تقوى الله ، فكذلك تعظيم الله من تقواه »[4] اهـ

---

(١) أنظر تفسير القرطبى ١٦ / ٢٠٨-٢٠٩

(٢) أنظر تفسير ابن كثير ٢٤٨/٧ ط الشعب .

(٣) سورة الحج / ٣٢ .

(٤) أنظر مفاتيح الغيب ٥٦٣/٧

ثم بين الحق ـ تعالى شأنه جزاء المتأدبين مع سيدنا رسول الله ﷺ الغاضين أصواتهم عنده بقوله جل شأنه :

« لهم مغفرة وأجر عظيم » : فهذه الجملة : وقعت مستأنفة لبيان جزاء الغاضين فبينت أن هذا الجزاء الجزيل يتمثل فى المغفرة لذنوبهم ، والأجر العظيم لغضهم ولسائر طاعاتهم وهذا جزاء عام لمن تحقق بهذه الآداب العليا ويدخل الشيخان رضوان الله عليهما فى عمومها دخولا أوليا ، وكذا سيدنا ثابت بن قيس ، لما رواه ابن مردويه عن أبي هريرة رضى الله عنه : قال . « لما أنزل الله تعالى (أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى » قال رسول الله ﷺ : « منهم ثابت بن قيس بن شماس »(١) .

ثم قال تعالى شأنه :

« إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون »

وقد روى فى سبب نزول هذه الآية الكريمة والتى تليها : روايات عدة ، من أصحها ما رواه الإمام أحمد وغيره عن الأقرع بن حابس أنه أتى النبى ﷺ فقال يا محمد أخرج إلينا . فلم يجبه ، فقال . يا محمد ، إن حمدى زين ، وإن ذمى شين ، فقال ، ذاك الله فأنزل الله : (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات »(٢) .

وفى رواية أخرى . عن زيد بن أرقم أنه قال . اجتمع ناس من العرب فقالوا . انطلقوا إلى هذا الرجل ، فإن يك نبيا ، فنحن أسعد الناس به ،

(١) أنظر الدر المنثور فى التفسير بالمأثور للامام السيوطى ٨٦/٦

(٢) أخرجه الامام السيوطى ـ فى الدر ـ عن الامام أحمد وابن جرير والبغوى وابن مردويه والطبرانى بسند صحيح من طريق أبى سلمة . أنظر المصدر السابق .

(٣) أخرجه الامام السيوطى ـ فى الدر ـ عن ابن راهويه ومسدد وأبى يعلى والطبرانى وغيرهم بسند حسن . أنظر الدر المنثور ٨٦/٦

وإن يك ملكا : نعش بجناحه، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته بما قالوا ، فجاءوا إلى حجرته فجعلوا ينادونه : يا محمد ، فأنزل الله : « إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون » فأخذ رسول الله ﷺ بأذنى ، وجعل يقول : لقد صدق الله قولك يازيد ، لقد صدق الله قولك »(١)

وقد جاءت هذه الآية الكريمة ذما لمن لا يلزم الأدب مع حضرته ﷺ من أجلاف العرب ومن على شاكلتهم ممن يتركون أدب الحضور بين يديه والتأدب فى عرض — الحاجة بين يديه صلوات الله وسلامه عليه .

و (من) فى قوله تعالى: (من وراء) ابتدائية فهى تفيد : أن المناداة قد نشأت من جهة الوراء . وفى ذلك دلالة على أن المنادى ـ بفتح الدال ـ داخل الحجرة ، ضرورة اختلاف المبدأ والمنتهى بالجهة ، وذلك المفاد لا يتحقق لو أسقطت (من) .

وكلمة (وراء) مأخوذة من المواراة ، والاستتار ، فما استتر عنك فهو وراء سواء كان خلفاً أم قداما ، وقيل : إنها من أسماء الأضداد فتطلق على القدام والخلف(٢)

و(الحجرات)(٣) : جمع حجرة ، وهى القطعة من الأرض المحجورة

---

(١) أخرجه الامام السيوطى — فى الدر — عن ابن راهويه ومسدد وأبى يعلى والطبرانى وغيرهم بسند حسن . أنظر الدر المنثور ٨٦/٦

(٢) فعلى القول الاول تكون (وراء) مشتركا معنويا ويكون الوراء بالنسبة لمن فى الحجرات . ما كان خارجها لتواريه عمن فيها . وعلى الثانى تكون مشتركا لفظيا (روح المعانى ١٣٩/٢٦) .

(٣) فى لفظ الحجرات ثلاث قراءات : فقد قرئت بسكون الجيم وضمها وفتحها وهذه الأوجه جائزة فى جمع كل اسم جامد جاء على وزن (فعلة) .

بحائط . والمراد بها : بيوت نساء النبي ﷺ ، وكانت تسعة ، لكل منهن حجرة ، وقد أخرج البخاري — في الأدب — والبيهقي عن داود بن قيس قال : « رأيت الحجرات من جريد النخل ، مغشى من خارج بمسوح الشعر وأظن عرض البيت من باب الحجرة إلى باب البيت نحواً من ستة أو سبعة أذرع ، وأحزر البيت الداخل عشرة أذرع ، وأظن سمكه بين الثمان والسبع »[1]

وروى عن الإمام الحسن رضي عنه أنه قال :

« كنت أدخل بيوت أزواج النبي ﷺ في خلافة عثمان بن عفان فأتناول سقفها بيدي » .

وقد أدخلت حجرات أزواج النبي ﷺ — بما فيها الحجرة الشريفة التي دفن بها وهي حجرة السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها — في مسجد سيدنا رسول الله ﷺ في خلافة الوليد بن عبد الملك في أواخر القرن الهجري الأول .[2]

وفي ذكر (الحجرات) كناية عن خلوته ﷺ بنسائه ، لأنها معدة لذلك . ومناداتهم من ورائها . إما بإتيانهم لها حجرة حجرة فنادوه ﷺ من ورائها .

وأما بأنهم تفرقوا على الحجرات متطلبين له ﷺ . وعلى ذلك يكون إسناد النداء من إسناد فعل الأبعاض إلى الكل . وقد أسند إلى الجميع لأنهم رضوا بذلك .

---

(١) أنظر الدر المنثور ٦/٨٧

(٢) أنظر نفس المصدر السابق وأنظر روح المعاني ٢٦/١٣٩ .

وقوله تعالى : (أكثرهم لا يعقلون) حكم من الله تعالى على من تعدى حدود الأدب مع النبى ﷺ ولم يراع جلال منصب النبوة وما يناسبه من التعظيم وإنما جاء الحكم على الأكثر دون الكل بذلك : لأن منهم من لم يقصد مجافاة الأدب وإنما نادى لأمر ما دون استهانة بحرمته ﷺ . وقيل : إن التعبير بالأكثرية : لإخراج من تاب منهم عن ذنبه .

ومناط الحكم فى الآية الكريمة : أن العقل يقتضى حسن الأدب ومراعاة الحشمة لا سيما مع سيد الخلق ﷺ ، ولا ريب أن النداء من وراء الحجرات فيه من سوء الأدب تكليف المشقة بالمشى والحضور إلى المنادى فضلا عن الإزعاج بهذا النداء — الجافى والرسول ﷺ فى خاصة بيته وقد يكون منشغلا آنذاك بمناجاة ربه أو بتلقى الوحى ونحو ذلك مما هو من خصائصه ﷺ مما يوجب التعقل مراعاته .

ثم قال تعالى شأنه :

— « ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم والله غفور رحيم »

إشارة لحسن الأدب المباين لما اقترفه المنادون من وراء الحجرات فى وقت اختلائه ﷺ بربه أو بنفسه أو بأهله ، فإن للنفس حقا وإن للأهل حقا والحق أحق أن يتبع !

(ولو) هنا : شرطية ، وهى مختصة بالدخول على الفعل ، ولذا قدر فعل الشرط بقرينة دلالة (أن) على الثبوت ، والتقدير : ولو ثبت صبرهم وانتظارهم حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم ، وتكون (أن) المؤولة مع اسمها وخبرها بمصدر :

وقع فاعلا للفعل المقدر ، وإنما قدر الفعل ماضيا لدلالة (أن) على التحقق والثبوت وهو إنما يكون فى الماضى والتعبير بحتى : يفيد أن الصبر ينبغى أن يكون مغيا بخروجه ﷺ ، لأن (حتى) مختصة بما هو غاية للشىء فى

نفسه ، ولذا تقول : أكلت السمكة حتى رأسها ، ولا يجوز أن تقول : حتى نصفها ، لأن مجرور حتى ينبغى أن يكون آخر جزء . ولذلك أثر التعبير ههنا بحتى على التعبير بإلى التى هى عامة لما هو غاية فى نفس الأمر ولما هو بجعل الجاعل .

وفى التعبير بقوله (إليهم) : تقييد للخروج المنتظر ، ففيه إشعار بأنه ﷺ لو خرج لا لأجلهم ينبغى أن يصبروا حتى يتوجه إليهم أو يفاتحهم فى الكلام واسم كان فى قوله تعالى (لكان خيرا لهم) : ضمير مستتر يعود على — المصدر المنسبك ، والتقدير : لكان الصبر خيراً لهم من الاستعجال ، لما فيه من حفظ الأدب مع الرسول ﷺ : وتعظيمه الموجبين للثناء والثواب .

وقد جاء قوله تعالى (والله غفور رحيم) فتحا لباب التوبة والإنابة . والمعنى : أنه سبحانه بليغ المغفرة والرحمة واسعهما ولن تضيق ساحة غفرانه وإحسانه عمن تاب وأناب إلى جنابه .

وهكذا يؤدب الله تعالى عباده مع نبيه الأعظم ﷺ ، وتثمر هذه الآداب فى أصحاب نبيه ﷺ سمو الأخلاق وكرائم الشيم ومعالى الفضائل لا مع نبيهم صلى الله عليه وسلم فحسب : بل مع أولى الفضل عامة من العلماء والصلحاء .

فمن أروع أمثلة ذلك ما يروى من أن حبر الأمة الإمام عبد الله بن عباس — رضى الله عنهما — كان يذهب إلى الإمام أبى بن كعب رضى الله عنه فى بيته لأخذ القرآن العظيم عنه — لأنه من أعظم القراء وكتاب الوحى — فكان الإمام ابن عباس يقف عند الباب ولا يدق الباب عليه حتى يخرج . فاستعظم ذلك سيدنا أبى منه . فقال له يوما : هلا دققت

الباب يا ابن عباس ؟؟ فقال : « العالم فى قومه كالنبى فى أمته . وقد قال الله تعالى فى حق نبيه عليه الصلاة والسلام « ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم »[1] اهـ

وبهذه الآداب العليا التى تضمنتها « سورة الحجرات » فيما يتعلق بحقوق النبى ﷺ على أمته . تربى أئمة سلفنا الصالح وربوا بهديها الساطع جمهور الأمة وقدموا منها خير الزاد للخلفاء والرعية ، وهذه صورة مشرقة للتخلق بتلك الآداب السامية ننقلها عن أحد أئمة السلف وهو الإمام مالك رضى الله تعالى عنه : —

روى القاضى عياض — فى كتاب « الشفا فى التعريف بحقوق المصطفى ﷺ » بسنده عن ابن حميد قال :

ناظر أبو جعفر — أمير المؤمنين — مالكا ، فى مسجد رسول الله ﷺ فقال له مالك : يا أمير المؤمنين ، لا ترفع صوتك فى هذا المسجد ، فإن الله تعالى أدب قوما فقال : « لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون » ،

ومدح قوما فقال : « إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم » .

وذم قوما فقال . « إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون » .

وإن حرمته ميتا كحرمته حيا .

---

(١) أنظر روح المعانى للإمام الآلوسى ٢٦/١٤٤

فاستكان(١) لها أبو جعفر وقال . يا أبا عبد الله ، أأستقبل القبلة وأدعو أم استقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟؟

فقال . ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله تعالى يوم القيامة ؟ ؟ بل استقبله واستشفع به ، فيشفعك الله(٢) ، قال الله تعالى ، « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما »(٣) ، ا هـ(٤) .

وهكذا ترسم سورة الحجرات المعالم الوضاءة والمبادئ البناءة ، المنظمة لعلاقة الأمة بنبيها الخاتم صلى الله تعالى عليه وآله وصحابته وسلم . ثم يقول الله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » .

شروع فى بيان تنظيم العلاقة بين أفراد المجتمع الإيمانى وما ينبغى أن تقوم عليه هذه العلاقة من الاحتياط اليقظ لحماية أواصر الأخوة الإيمانية من دواعى الفرقة والتمزق والتشاحن ، من ثم حث القرآن الكريم — هنا — على التثبت فى خبر الفاسق لئلا يضار المؤمن ويصاب قوم بسبب الجهل بحقائق الأمور فتكون العاقبة ملازمة الندم .

---

(١) أى خشع وخضع أبو جعفر لمقالة الإمام مالك رضى الله عنه .

(٢) معنى العبارة . أطلب شفاعته وسل وسيلته فى قضاء حاجتك . يشفعك الله تعالى أى . يقبل الله تعالى فيه شفاعتك لأمرك .

(٣) سورة النساء / ٦٤

(٤) أنظر الشفا بتحقيق على البجاوى ٢/٥٩٥

وقد ورد في سبب نزول هذه الآية الكريمة روايات عدة ، منها مارواه ابن جرير والطبراني وغيرهما عن السيدة أم سلمة — رضي الله عنها — قالت : -

« بعث النبي صلى الله عليه وسلم الوليد بن عقبة إلى بني المصطلق يصدق أموالهم ، فسمع بذلك القوم ، فتلقوه يعظمون أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فحدثه الشيطان أنهم يريدون قتله ، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن بني المصطلق منعوا صدقاتهم[1] ، فبلغ القوم رجوعه ، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقالوا : نعوذ بالله من سخط الله وسخط رسوله ، بعثت إلينا رجلا مصدقا فسررنا لذلك وقرت أعيننا ، ثم أنه رجع من بعض الطريق ، فخشينا أن يكون ذلك غضبا من الله ورسوله ، ونزلت :

« يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ . . »[2] وقد علق الإمام الفخر على تلك الرواية قائلا :

« وهذا جيد إن قالوا بأن الآية نزلت في ذلك الوقت » .

وأما إن قالوا بأنها نزلت لذلك مقتصرا عليه ، ومتعديا إلى غيره ، فلا ، بل نقول ، هو نزل عاما لبيان التثبت ، وترك الاعتماد على قول الفاسق ، ويدل على ضعف قول من يقول إنها نزلت لكذا أن الله تعالى لم يقل ، إني أنزلتها لكذا ؟ والنبي صلى الله عليه وسلم لم ينقل عنه ، أنه بين

---

(١) وفي رواية أخرى أنه قال : « . . إن بني المصطلق قد منعوا صدقاتهم وأرادوا قتلي ، فغضب رسول الله ﷺ وهم أن يغزوهم . . » انظر أسباب النزول للواحدي ٤١٢ .

(٢) انظر الدر المنثور للإمام السيوطي ٨٨/٦

بين أن الآية وردت لبيان ذلك فحسب . غاية ما فى الباب ، أنها نزلت فى ذلك الوقت ، وهو مثل التاريخ لنزول الآية ، ونحن نصدق ذلك .

ويتأكد ما ذكرنا : بأن إطلاق لفظ الفاسق على الوليد شيء بعيد ، لأنه توهم وظن فأخطأ والمخطئ لايسمى فاسقاً. كيف والفاسق فى أكثر المواضع: المراد به : من خرج عن ربقة الإيمان ، لقوله تعالى : « إن الله لا يهدى القوم الفاسقين »(١) أ هـ(٢) .

وهذا لعمرى تحليل رائع يجب أن يفهم على أساسه ما روى فى سبب نزول الآية الكريمة .

والخطاب بقوله تعالى(يا أيها الذين آمنوا ..) شامل للنبى ﷺ وللمؤمنين الكاملين من أمته فى محاسن الآداب ومكارم الأخلاق .

وإنما عبر بإن فى قوله (إن جاءكم) : وهى أداة الشرط التى لا تذكر مع التوقع ، حيث لا يحسن أن يقال : إن طلعت الشمس : لإفادة أن الفاسق — الذى يطلق كثيراً على الكافر — قلما يتمكن من إخبار المؤمن بنبأ ما ، لأن الله تعالى وصف المؤمنين بكونهم أشداء على الكفار رحماء بينهم .

والفسق فى اللغة : هو الخروج ، وفى الشرع : هو الخروج عن حدود الشرع ، ويقع بالقليل من الذنوب وكثيرها ، لكنه تعورف فيما كان كثيراً وأكثر ما يقال الفاسق: لمن التزم حكم الشرع وأقر به ثم أخل بجميع

---

(١) سورة المنافقون / ٦

(٢) أنظر مفاتيح الغيب ٥٦٦/٧

(٣) أنظر : مفردات الراغب / ٣٨٠

أحكامه أو ببعضه . وأما إطلاق الفاسق على الكافر الأصلى : فلا خلاف بحكم ما ألزمه العقل واقتضته الفطرة(١) .

وأما النبأ : فهو الخبر العظيم الفائدة الذى يحصل به علم أو غلبة ظن وحق الخبر الذى يقال فيه نبأ : أن يتعرى عن الكذب ، كالتواتر ، وخبر الله تعالى وخبر النبي ﷺ(٢) .

وإنما نكر كل من (فاسق) و (نبأ) : لقصد التعميم ، إذ أن وقوع النكرة فى سياق — الشرط يفيد العموم .

ومعنى (فتبينوا) : فتعرفوا وتفحصوا ، فالمراد بالتبين : طلب البيان ، والتفتيش عن الأمر وقد قرأ حمزة والكسائى :— « فتثبتوا » أى : اطلبوا الثبات والتأنى حتى يتضح الحال . هذا : وفى النداء بـ : (يا أيها الذين آمنوا . .) دلالة على أن الإيمان إذا اقتضى التثبيت فى نبأ الفاسق ، فأولى أن يقتضى عدم الفسق . ومن ثم يكون هذا النداء الإيمانى المتكرر خمس مرات فى سورة الحجرات مخرجا للفاسق من حظيرة الخطاب — من باب « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن »(٣) — وفى الوقت نفسه يكون مدعاة — للإلتزام بمقتضيات الإيمان من الطاعة وحفظ حدود الله تعالى ومراعاة آداب العبودية له سبحانه .

وقد استدل علماء الأصول بهذه الآية الكريمة على أمرين :—

الأول : جواز قبول خبر الواحد العدل ، وذلك : لأنه رتب الأمر

---

(١) أنظر : مفردات الراغب / ٣٨٠

(٢) نفس المصدر /٤٨١

(٣) أخرجه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه فى كتاب الحدود من صحيحه ١١٤/٤

بالتبين على كون المخبر فاسقا(١)، فمفهوم المخالفة يقتضى أنه لو لم يكن فاسقا لقبل خبره

والثانى : أن الفاسق لاتقبل شهادته ، لأن الله تعالى أمر بالتبين فى الخبر والنبأ من قبله فلو كان قوله مقبولا لما أمر الحاكم بتبينه ، وإذا كان التبين مأمورا به فى الخبر والنبأ كان الأمر به فى الشهادة من باب أولى ، لضيق باب الشهادة .

وأما قوله تعالى (أن تصيبوا قوما) : فإن (أن) والفعل بعدها فى تأويل مصدر وقع فى محل النصب مفعولا لأجله ، وقد حذف منه المضاف(٢) ، والتقدير : كراهة أصابتكم قوما بجهالة .

وقوله تعالى : « بجهالة » : أى حالة كونكم ملتبسين بجهالة حالهم .

ومعنى « فتصبحوا » فتصيروا ، فالفعل ههنا للصيرورة المطلقة دون تقييد بوقت الصباح .

ومعنى « نادمين » : مغتمين غما لازما ، متمنين أنه لم يقع ، فمادة الندم تفيد اللزوم — بتصاريفها المختلفة . ومنها النديم . وكذا بتقاليب النون

(١) والأصوليون يقررون أن ترتيب الحكم على الوصف المناسب يغلب على الظن أنه علة له .

(انظر : حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى ٧٦/١ ومفاتيح الغيب ٥٦٧/٧) .

(٢) أما أن يقدر ههنا مضاف أو حرف نفى . والتقدير على الأخير : لئلا تصيبوا ، وذلك لأن الأمر بالتبين ليس لأجل الإصابة بل لأجل مخافتها .

والدال والميم ومن ذلك : المدمن والمدينة . فالآية الكريمة تفيد التحذير ووجوب الاحتراز من عدم التثبت من نبأ الفاسق كما تفيد أخيرا أن المؤمن إذا اقترف سيئة فشأنه ملازمة الندم على فعلها والتوبة إلى الله تعالى منها .

ثم قال عز من قائل : —

« واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون » .

* * *

علاقة هذه الآية الكريمة بسابقتها : —

لما أمر الله سبحانه — فى الآية السابقة — بالتبين والتثبت فى خبر الفاسق والكشف عن حقيقته : بين فى هذه الآية الكريمة أقوم طريق للتثبت وحث على انتهاجه وندد بالحيدة عنه فقال تعالى : « واعلموا أن فيكم رسول الله . . . » أى أن كشف حقيقة نبأ الفاسق سهل عليكم بالرجوع إلى الرسول الكريم ﷺ ، فإنه فيكم وبين أظهركم مبين ومرشد ومنبأ من الله تعالى بحقائق أموركم فهو أعلم من مصالحكم من أنفسكم وأشفق عليكم منكم كما قال تعالى : « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم »(1) .

وهذا كما يقول القائل عند اختلاف تلاميذ الشيخ فى مسألة ما : هذا

(1) سورة الأحزاب /٦

الشيخ قاعد : فإنه لا يريد بهذا القول بيان قعود الشيخ ، وإنما يريد به أمرهم بالمراجعة إليه(١) .

وإذاً : فمفاد نظم الآيتين الكريمتين : إرشادهم إلى ضرورة متابعة النبي المعصوم صلى الله عليه وسلم والرجوع إليه فى تبين حقيقة أمورهم وإيثار طاعته على اتباع آرائهم حتى لا يقعوا بالجهالة فى العنت والمشقة المفضيين إلى الندم .

ومن ثم : يكون قوله تعالى : (واعلموا . .) معطوفا على (فتبينوا) ، وتكون (أن) بما دخلت عليه — بما قيد به من الحال — ساد مسد مفعولى . (اعلموا) .

ولابد — لربط النظم بما يحقق فائدة اتصال الآيتين فى المعنى — أن لا يكون قوله (لو يطيعكم) مستأنفا ، بل تكون هذه الجملة المصدرة بلو حالا من الضمير فى (فيكم)(٢) .

والمعــنى : واعلموا أن فيكم رسول الله صلى الله عليه وسلم كائنا — أو كائنين — على حالة يجب عليكم تغييرها ، وهى : أنكم تريدون أن يتبع — عليه الصلاة والسلام — رأيكم فى كثير من الأمور والحوادث ولو فعل ذلك لوقعتم فى الجهد والمشقة والهلاك ، أو فى الإثم الفساد . فكلها معان للعنت .

---

(١) أنظر : مفاتيح الغيب ٧-٥٦٨—٥٦٩

(٢) يتضمن قوله (فيكم) ضميرا مجرورا يعود على المؤمنين ، وضميرا مرفوعا — وهو المستتر فى متعلق الظرف — ويعود على الرسول صلى الله عليه وسلم، أى ، كائنا فيكم . وفى جعل الضمير المرفوع صاحب الحال كلام .

وفى النظم الكريم . إشارة إلى أن بعضهم قد أشار عليه صلى الله عليه وسلم بالإيقاع ببنى المصطلق ، تصديقا لقول الوليد . ولكنه ﷺ لم يطع رأيهم .

والتعبير بالمضارع (يطيعكم) بعد (لو) . يفيد امتناع استمرار طاعته صلى الله عليه وسلم لهم فى كثير مما يعن لهم من الأمور . وإنما قال « فى كثير من الأمر » . ليعلم موافقته لهم فى بعضها تقريراً لمبدأ الشورى كذلك أفاد التعبير به (لو) . أن ما بدر من بعضهم من تزيين الإيقاع ببنى المصطلق كان من حقه أن يفرض كما تفرض الممتنعات ، لأن لو تدل على الفرض والتقدير[1] .

وقد جاء الخطاب عاما فى قوله (واعلموا) مع أنه أريد به الخاص عن حرضوا على بنى المصطلق ليفيد التعريض بهؤلاء كأنه قيل : يا أيها الذين آمنوا : تبينوا إن جاءكم فاسق ولا تكونوا أمثال هؤلاء عن استفزه النبأ قبل هل تعرف صدقه ولم يكتف بذلك بل أراد أن يعكس الأمور فيستتبع رأى من حقه أن يكون هو المتبوع على الإطلاق، فيقع هو وغيره فى المشقة والهلاك ، واعلموا جلالة قدر رسول الله ﷺ فعظموه ووقروه وتأدبوا معه بالتبعية المطلقة .

وقوله تعالى « ولكن الله حبب إليكم الإيمان » استدراك على ما سبق والمخاطب به :

(أ) إما أن يكون جميع المؤمنين المخاطبين بقوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق .. » وعلى هذا يكون استدراكا لبيان عذرهم فى

---

(١) أنظر : روح المعانى ١٤٨/٢٦

محاولتهم حمل النبي ﷺ على الإيقاع ببني المصطلق ،ويتمثل هذا العذرفي: أن فرط حبهم للإيمان وكراهتهم للكفر قد حملهم على ذلك لما سمعوا قول الوليد ابن عقبة .

(ب) وإما أن يكون الخطاب مجرداً إلى بعضهم — من لم يريدوا قتال بني المصطلق — بطريق الاستدراك ، بياناً لبراءتهم عن أوصاف الأولين وإحماداً لفعلهم ، وتعريضاً بذم من سلكوا غير مسلكهم ، وعلى هذا أيضاً يكون الاستدراك في موقعه لمغايرة صفتهم لصفة المتقدم ذكرهم . ويؤيد ذلك قوله تعالى بعد : « أولئك هم الراشدون » .

على معنى : أولئك المستثنون عن قبلهم (١) هم الذين أصابوا الطريق المستقيم .

ومعنى : « حبب إليكم الايمان » أي ألقى حب الإيمان في قلوبكم بأن بينه ووصفه بالثناء عليه حتى قربه اليكم وأدخله في قلوبكم ، فشع نوره في جميع ذواتكم تصديقاً بالجنان وإقراراً باللسان وعملا بالأركان .

قال الإمام الحسن — رضي الله عنه : — حبب الإيمان بما وصف من الثناء عليه ، وكره الثلاثة بما وصف من العقاب(٢)

ومعنى قـــوله تعالى . « وزينه في قلوبكم » حسنه بتوفيقه إليكم حتى اخترتموه(٣) .

---

(١) بيان هذا : أن ذوى الرشد طائفة في المعنى مستثناة من قبلهم عن لم يروا الإيقاع ببني المصطلق

(٢) المراد بالثلاثة : نقائض الإيمان الكامل : الكفر والفسوق والعصيان . والنقل عن الإمام الحسن من البحر المحيط لأبي حيان ٨/ ١١٠ .

(٣) أنظر تفسير القرطبي ١٦/ ٣١٤ .

والامام الفخر يقول : « حبب إليكم الإيمان » أى بينه ، « وزينه » بالبرهان اليقينى » ـــ ثم يقول ـــ : حبب إليكم .. » أى قربه إليكم وأدخله فى قلوبكم ، ثم زينه فيها بحيث لا تفارقونه ولا يخرج من قلوبكم ، وهذا : لأن من يحب أشياء فقد يمل شيئاً منها إذا حصل عنده وطال لبثه ، والإيمان كل يوم يزداد حسناً ، ولكن من كانت عبادته أكثر وتحمله لمشاق التكاليف أتم: تكون العبادة والتكاليف عنده ألذ وأكمل ، ولهذا قال فى الأول : حبب إليكم، وقال ثانياً زينه فى قلوبكم ، كأنه قربه إليهم، ثم أقامه فى قلوبهم(١)

ثم بين بقوله جل شأنه « وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان » : ـــ عظيم انعامه عليهم بتكريه وتبغيض(٢) أضداد الإيمان الكامل إليهم ، وهو الجامع للتصديق بالجنان ، والنطق باللسان والعمل بالأركان، فذكر الكفر فى مقابلة التصديق ، والفسوق ـــ بتخصيصه بالأمر القولى وهو الكذب ـــ فى مقابلة الإقرار اللسانى ، والعصيان فى مقابلة العمل بالأركان ـــ التى هى الجوارح .

والكفر ـــ والعياذ بالله تعالى منه ـــ أصله فى اللغة : الستر والتغطية الحسية ، ثم نقل إلى التغطية المعنوية ، فأطلق على تغطية نعم الله بالجحود والكفر فى إطلاق الشرع هو جحود الوحدانية أو الشريعة أو النبوة(٣)

والفسوق . أصله فى اللغة . الخروج ، ومنه قولهم : فسقت الثمرة إذا خرجت من قشرها ويطلق فى الشرع . على الخروج من الطاعة ، لكنه

---

(١) أنظر مفاتيح الغيب ٧/٥٧٠

(٢) ذكر البيضاوى : أنه نزل الفعل (كره) منزلة (بغض) لتضمنه معناه فعدى تعدية إلى المفعول الثانى: (إلى) ، وذلك لحسن مقابلة (كره) لقوله :(حبب)

(٣) أنظر مفردات الراغب ص / ٣٢٣ ـــ ٣٢٤ ط الحلبى .

خصص فى هذه الآية الكريمة بالكذب فقد روى عن الإمام ابن عباس – رضى الله عنهما – فى تفسيرها أنه قال : « يريد به الكذب – خاصة »(١) .

وقد رجح ذلك الإمام الفخر بدلالة السياق قبله فى قوله سبحانه « إن جاءكم فاسق بنبأ » ، حيث سمى من كذب فاسقا ، فيكون الكذب فسوقا .

وأيضا بدلالة ما بعده ، وهو قوله تعالى « . . ولا تنابزوا بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان . . » ففيه دلالة على أن الفسوق أمر قولى .

وأما العصيان : فهو الامتناع عن الانقياد ، وأصله فى اللغة : مأخوذ من قولهم . عصت النواة ، إذا صلبت واشتدت .

ومن ثم : قدم الفسوق على العصيان ، لأن الأول : خروج من الطاعة بعد الدخول فيها .

أما العصيان : فهو امتناع عن الانقياد لها . ولا شك أن تبعة الخروج من الطاعة بعد الدخول فيها أشد جسامة من التأبى عليها ابتداء .

وبعض العلماء يطلق الفسوق على اقتراف الكبيرة ، والعصيان على ارتكاب الصغيرة(٢) بيد أن الأوفق للسياق ما ذكرناه قبل .

ثم انتقل الكلام من الخطاب إلى الخبر(٤) فقال تعالى : « أولئك هم الراشدون » .

---

(١) أنظر مفردات الراغب ص ، ٣٣٣-٣٣٤ ط الحلبى .

(٢) أنظر تفسير القرطبى ٣١٤/١٦

(٣) أنظر تفسير الفخر الرازى ٧ / ٥٧١

(٤) أى من خطاب المؤمنين الى الإخبار عنهم .

فالخطاب فيه للنبي صلى الله عليه وسلم ، والمشار إليه هم المخاطبون قبل فى : « . . حبب إليكم الإيمان » .

والرشد : هو الاستقامة على طريق الحق مع تصلب فيه ، وأصله : من الرشادة ، وهى الصخرة[1] .

ومن ثم : قصرت الآية الكريمة الرشد على هؤلاء المسترشدين بوجود النبى صلى الله عليه وسلم فيهم إذ حبب إليهم الإيمان وزين فى قلوبهم وكره إليهم أضداده ونقائضه .

وبذا : يلتق ختم الآية مع صدرها ، إذ نوه فى بدئها بالتنبيه على كونه صلى الله عليه وسلم فيهم ولهم مرشدا ، فباسترشادهم إياه وبامتثالهم لإرشاده مع توفيق الله تعالى لهم وتفضله عليهم بتحبيب الإيمان وتزيينه فى قلوبهم مع تكريه نقائضه : صاروا هم الراشدين .

ومن ثم : فإن الآية الكريمة — مع إرسائها لقاعدة التثبت فى خبر الفاسق حفاظا على علاقة المؤمن بإخوته فى الإيمان — تضيف بعدا جديدا من أبعاد الالتزام بشرع النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو تمثل وجوده الشريف مرشدا وقائدا فلا يفتات عليه أحد فى أمر ما حتى لا يقع فى العنت الموبق .

وهكذا : تعطينا الآية الكريمة بإيجاز معجز — معالم المجتمع الراشد . وتبرز مقاييس الرشد الإيمانى الذى ترتق به الأمة المحمدية أوج خيريتها على كافة الأمم

---

(١) أنظر تفسير القرطبى ٢١٤/١٦

ثم قال تعالى شأنه : —

— (فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم) —

فبين أن وجوده ﷺ فيهم مرشدا وقائدا(١) وأن تحبيب الإيمان وتزيينه فى قلوبهم وتكريه الكفر والفسوق والعصيان إليهم وتحقق الرشد فيهم إنما هو تفضل وإنعام من الله تعالى عليهم وليس ذلك حاصلا من عند أنفسهم بل بخلقه وإيجاده سبحانه على مقتضى علمه وحكمته جل شأنه .

وبذا : يندحض زعم المعتزلة — ومن نحا نحوهم — بأن العبد موجد لأفعاله الاختيارية بإرادته واختياره ، حيث أثبتت الآية الكريمة أن حب الإيمان — بمشتملاته — وكره الكفر والمعاصى والتعاون بمحض تفضله تعالى وإنعامه .

فقوله تعالى : (فضلا) : مفعول لأجله ، والعامل فيه : الأفعال المسندة إليه تعالى فى قوله سبحانه : « ولكن الله حبب إليكم ... » الخ وتكون جملة « أولئك هم الراشدون » اعتراضية ، كما يجوز أن يكون (الراشدون)

---

(١) اقتصر المفسرون على جعل العامل فى (فضلا) ، (حبب) و (كره) أو — (الراشدون) أو فعل مقدر تقديره ، فعل ذلك بكم فضلا ، دون التصريح بما يفيده قوله تعالى (واعلموا أن فيكم رسول الله) من جعل متعلق الظرف (فيكم) له أولوية الاعتبار والعمل فى المصدر . وقد نبه المؤلف هنا الى هذا فصدر نعمة وجوده صلى الله عليه وسلم لتكون أولى مراتب التفضل الإلهى .

هو العامل في (فضلا)(١) من حيث أن الرشد هو فعل الله تعالى ـ كما هو مذهب أهل السنة والجماعة ـ لا مسبب عنه كما ذهب الزمخشري والمعتزلة ، وقيل ، أن « فضلا » مفعول به لفعل محذوف والتقدير يبتغون فضلا .

والفضل والنعمة . بمعنى الأفضال والإنعام ، كما ذكره أبو حيان(٢) .

وقد فرق الإمام الفخر بين الفضل والنعمة ، بأن الفضل في الأصل هو الزيادة ، ففضل الله تعالى . إشارة إلى ما عنده من الخير وهو مستغن عنه ، فهو منبيء عما هو من جانب الله من الغنى وأما النعمة ، فهي إشارة الى ما يصل العبد وهو محتاج إليه ، بمقتضى الرأفة والرحمة فهي منبئة عما هو من جانب العبد من اندفاع الحاجة(٣) .

وأما مناسبة ختام الآية الكريمة لما سبقه من الكلام العزيز . فإن قوله تعالى « والله عليم حكيم » مناسب لقوله سبحانه . (واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم . .) الخ إذ مفاده . أنه لا يطيعكم بل يتبع الوحي ، فإن الله تعالى يعلمه من حيث هو (عليم) ويأمره بما تقتضيه الحكمة من حيث هو (حكيم) فاتبعوه واسترشدوا بهديه .

---

(١) لا يقدح في هذا الوجه ، اشتراط اتحاد الفاعل — أي من صدر عنه الفعل بإيجاده — لأن الرشد قد وقع — في الآية الكريمة عبارة عن التحبيب والتزيين والتكريه وكلها مسندة اليه تعالى . أو ، لأن الرشد يستلزم ارشاده تعالى ، فيصح كون (الراشدون) عاملا في فضلا لأن الرشد فعله تعالى .

(٢) انظر البحر المحيط ١١١/١٨

(٣) عن مفاتيح الغيب ٧ / ٥٧١ بتصرف في العبارة .

ثم قال تعالى شأنه :

« وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » .

* * *

جاءت هذه الآية الكريمة إثر سابقتها لبيان واجب المؤمنين إزاء الطائفتين المقتتلتين ولتبيين أحكام البغاة من أهل الإيمان ، فهى فى تشريع أحكام معاملة المؤمنين فى حالة الحرب بينهم أثر بيان إرشادهم الى قطع أهم دواقع الوقيعة فى صفوفهم وهو نبأ الفاسق .

كأنه قيل . إن فاتكم تبين نبأ الفاسق وأدى الأخذ به الى حدوث الوقيعة واقتتال طائفتين من المؤمنين : فأزيلوا ما أثبته ذلك الفاسق وأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى[1] .
فالآية الكريمة فى تنظيم المجتمع الإسلامى وقت اعتراء الفتنة فى صفوفه وحدوث القتال بين بعض طوائفه .

وفى سبب نزول الآية الكريمة : يروى الإمام البخارى بسنده عن أنس رضى الله عنه أنه قال للنبى ﷺ : لو أتيت عبد الله بن أبى . فانطلق اليه النبى ﷺ . وركب حماراً فانطلق المسلمون يمشون معه ، وهى أرض سبخة فلما أتاه النبى ﷺ ، فقال اليك عنى ، والله لقد آذانى نتن حمارك فقال رجل من الأنصار منهم ، والله لحمار رسول الله أطيب ريحا منك ، فغضب لعبدالله رجل من قومه . فشتما ، فغضب لكل واحد منهما أصحابه ، فكان بينهما

---

(١) نفس المصدر ٧ ٥٧٣

ضرب بالجريد والنعال والأيدي ، فبلغنا أنها أنزلت : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما »(١) . وثمة مرويات أخرى في سبب نزول الآية الكريمة وقد آثرنا بالذكر أقواها في الصحة وأحراها بالقبول ، وناهيك بما رواه الإمام البخاري .

وإنما عبر — في صدر الآية الكريمة — بأن : إشارة إلى أنه لا ينبغي أن يقع القتال بين طوائف المؤمنين إلا نادراً وهذا سر إيثار (إن) على (إذا) بالتعبير .

كذلك آثر التعبير بالطائفتين على التعبير بالفرقتين — مثلا — تحقيقاً لمعنى التقليل أيضاً ، فإن الطائفة بعد الفرقة ، لقوله تعالى : فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة .. »(٢) .

وقد روى عن الإمام مجاهد أنه قال في تفسير الآية : (.. الطائفة : من الواحد إلى الألف ، وقال : إنما كانا رجلين اقتتلا)(٣) . والمراد : أن منشأ القتال كان بين رجلين ثم انتصر لكل منهما بعض قبيله . وفي اللغة : الطائفة من الناس : جماعة منهم ومن الشيء : القطعة منه(٤) .

وإنما وضع الظاهر موضع المضمر فقال : « من المؤمنين » ولم يقل (منكم) : للتنصيص على علة الحكم وهو الإيمان الذي هو علة لوجوب

---

(١) أنظر صحيح البخاري : كتاب الصلح ٧٥/٢ ط محمد عبد اللطيف وأنظر المسند : ١٥٧/٣ .

(٢) سورة التوبة /١٢٢ .

(٣) أنظر : الدر المنثور ٩٠/٦

(٤) أنظر : مفردات الراغب /٣١١

الاصلاح ، وتبعيداً للمخاطبين عن إسناد المقاتلة اليهم ، تنبيهاً على قبح ذلك .

ولنفس السبب : وهو إفادة التنفير من اقتتال المؤمنين باعد بين فعل الاقتتال و (ان) فلم يقل : وان اقتتل طائفتان .: مع أن الأولى أن تتصل (ان) بالفعل[١] ، وذلك : ليكون الابتداء بما يمنع القتال ، وهو كونهما طائفتين من جماعة المؤمنين .

وإنما عبر بالماضى (اقتتلوا بدلا من المضارع فلم يقل (يقتتلوا) لأن المضارع يفيد الدوام والاستمرار ، والمقصود هو إفادة وجوب الاصلاح قبل أن يتمادى القتال ويستمر بينهما وإنما عدل عن ضمير التثنية إلى ضمير الجمع فى : (اقتتلوا) : لمراعاة المعنى ، حيث أن كل طائفة جماعة ، فهما جمع فى المعنى وإن كان مثنى لفظا .

ثم عبر بضمير التثنية — ثانياً فى — (فأصلحوا بينهما) لمراعاة اللفظ فى : (طائفتان) والسر فى تقديم إعتبار المعنى على إعتبار اللفظ هنا — مع أن المشهور فى الاستعمال عكسه : — هو مراعاة المقام فى الآية الكريمة ، فإنهم فى حالة الاقتتال يكون كل أحد برأسه فاعلا فملافقال : (اقتتلوا) وفى حالة العودة إلى الصلح : تتفق كلمة كل طائفة وإلا لم يكن يتحقق الصلح ولذا قال : (بينهما) ليكون من الطائفتين حينئذ كنفسين[٢] كذلك فى حالة القتال يكونون مختلطين فلذا جمع ضميرهم أولا ، وفى حالة الصلح يكونون متميزين متفارقين ، فلذا ثنى ضميرهم [٣] . ولكل مقام مقال .

---

(١) لتحقيق هذه الأولوية : قدر بعد (ان) فعل محذوف وتقديره (اقتتل وفاعله (طائفتان) .

(٢) أنظر مفاتيح الغيب ٧/٥٧٢

(٣) أنظر روح المعانى ٢٦/١٥٠ .

وبواحد من وصف الطائفتين بكونهما (من المؤمنين): دليل قاطع على أن المؤمن لا يخرج بارتكاب الكبيرة عن كونه مؤمنا ، لأن القرآن الكريم جعل الطائفتين : الباغيه والمبغى عليها معا من المؤمنين ، وفى ذلك رد على فرقة الخوارج التى قالت بكفر من بغى وارتكب الكبيرة .

وقوله تعالى . (فأصلحوا بينهما): الأمر فيه للوجوب ، والمخاطب به: هو ولى الأمر أو : لمن يتأتى منه الإصلاح من المؤمنين(١).

ويكون الإصلاح : بإزالة الاقتتال نفسه ، وذلك بالنصيحة وإزالة الشبهة والدعاء إلى حكم الله تعالى أو التهديد والزجر والتعذيب(٢) .

ثم بين سبحانه المرتبة التالية للاصلاح بين الطائفتين إذا لم يستجيبا جميعا إلى حكم الله بالتصالح فقال تعالى : (فإن بغت أحدهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله) والبغى فى اللغة : هو طلب تجاوز الاقتصاد فيما يتحرى ، ويطلق على التعدى والاستطالة(٣) .

وفى الشرع هو الخروج على الإمام العادل(٤) .

والمراد به هنا ـ كما ذكره أبو حيان ـ : طلب العلو بغير حق(٥).

وقوله : (فقاتلوا التى تبغى) دليل على وجوب قتال الفئة الباغية المعلوم بغيها على الإمام أو على أحد من المسلمين ، وإبطال لزعم من منع قتال

---

(١) نفس المصدر ١٥١/٢٦

(٢) أنظر مفاتيح الغيب ٥٧٤/٧

(٣) أنظر . المفردات / ٥٥ ومختار الصحيح / ٥٩

(٤) أنظر حاشية الشيخ زادة على تفسير البيضاوى ٣٧٠/٤

(٥) أنظر البحر المحيط ١١٢/٨

المؤمنين بحق . إستناداً إلى قوله ﷺ « قتال المسلم كفر وسبابه فسوق .. »(١) .
فالمرادفى الحديث الشريف : قتاله بغير حق شرعى ، وإلا لعطلت الحدود ،
ولاستحل البغاة وأهل النفاق والفجور كل ما حرم عليهم من دماء
وأعراض وأموال المسلمين بأن يتحزبوا عليهم ويكف المسلمون أيديهم
عنهم ، بل ولاستطال المرتدون وأهل الالحاد على حرمة الدين نفسه ،
ولله در سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه إذ انتصب لدين الله مقاتلا
من ادعى تمسكه بالإسلام وامتنع عن الزكاة ، فالقتال حينئذ هو : حق
« لا اله إلا الله محمد رسول الله » .

وقد ذكر الامام القرطبى - فى تفسير الآية الكريمة — أن قوله تعالى:
« فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله » : أمر بالقتال . وهو فرض على
الكفاية ، إذاقام به البعض سقط عن الباقين ، ولذا تخلف قوم من الصحابة
— رضى الله عنهم — عن هذه المقامات . كسعد بن أبى وقاص ، وعبد الله
ابن عمرو ، ومحمد بن مسلمة وغيرهم ، وصوب ذلك على بن أبى طالب لهم ،
واعتذر اليه كل واحد منهم بعذر قبله منه . وقد كان ذلك تصرفا بحكم
الاجتهاد وإعمالا بمقتضى الشرع(٢) .

وذكر الإمام الألوسى فى تفسيره : أنه متى تحقق البغى من كل طائفة
كان حكم إعانة المبغى عليه حكم الجهاد ، واستند فى ذلك إلى ما أخرجه
الحاكم — وصححه — والبيهقى عن الإمام بن عمر — رضى الله عنهما —
أنه قال : ما وجدت فى نفسى من شىء ما وجدت فى نفسى من هذه الآية :
يعنى : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا .. » الخ ، انى لم أقاتل هذه الفئة

---

(١) رواه الامام أحمد والطبرانى وخرجه عنهما الامام النبهانى فى الفتح
الكبير ٢/٢٦٥

(٢) أنظر تفسير القرطبى ١٦ / ٣١٩

الباغية كما أمرني الله تعالى — يعني بها الفئة الباغية على سيدنا على كرم الله تعالى وجهه (١) . اهـ وهذا الحديث الشريف فيه إشعار بأن قتال البغاة فرض عين .

وقد أخرج ابن جرير وغيره عن الإمام ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال فى تفسير هذه الآية الكريمة : « إن الله أمر النبي ﷺ والمؤمنين إذا اقتتلت طائفة من المؤمنين بعد أن يدعوهم الى حكم الله وينصف بعضهم من بعض . فإن أجابوا حكم فيهم بكتاب الله حتى ينصف المظلوم من الظالم فمن أبى منهم أن يجيب ، فهو باغ ، وحق على إمام المؤمنين والمؤمنين أن يقاتلوهم حتى يفيئوا الى أمر الله ، ويقروا بحكم الله » (٢) .

وقد بين القرطبي أحوال معاملة البغاة فقال : —

« قال العلماء : لاتخلو الفئتان من المسلمين فى اقتتالهما ، إما أن يقتتلا على سبيل البغى منهما جميعاً أو : لا .

فإن كان الأول : فالواجب فى ذلك أن يمشى بينهما بما يصلح ذات البين ويثمر المكافة والموادعة . فإن لم يتحاجزا ولم يصطلحا وأقاما على البغى : صير الى مقاتلتهما .

وأما ان كان الثانى : وهو أن تكون إحداهما باغية على الأخرى ، فالواجب أن تقاتل فئة البغى الى أن تكف وتتوب : فإن فعلت : أصلح بينهما وبين المبغى عليها بالقسط والعدل ، فان التحم القتال بينهما لشبهة دخلت عليهما وكلتاهما عند أنفسهما محقة : فالواجب ازالة الشبهة والحجة

---

(١) أنظر روح المعانى ١٥١/٢٦

(٢) أنظر : الدر المنثور للامام السيوطى ٩٠/٦

النيرة والبراهين القاطعة على مراشد الحق . فإن ركبتا متن اللجاج ولم تعملا على شاكلة ما هديتا إليه ونصحتا به من أتباع الحق بعد وضوحه لهما فقد لحقتا بالفئتين الباغيتين . والله أعلم (١) .

وأما قوله تعالى : « حتى تفيء إلى أمر الله » : فالمراد به : حتى ترجع إلى حكمه أو إلى ما أمر به سبحانه وتعالى فالفيء – فى أصل معناه – هو الرجوع ويطلق على الظل الواقع بعد الزوال ، لرجوعه بعد ما أزالته الشمس (٢) .

والأمر فى قوله تعالى : « إلى أمر الله » : إما واحد الأمور ، فيكون المراد به الحكم ، وأما هو واحد الأوامر ، فيكون المراد به لازمه وهو المأمور به .

ويقول الإمام الفخر – قدس الله سره – قوله تعالى : « إلى أمر الله » يحتمل وجوها : –

أحدها : إلى طاعة الرسول وأولى الأمر ، لقوله تعالى : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم »(٣) .

ثانيا : إلى أمر الله ، أى : إلى الصلح ، فإنه مأمور به ، يدل عليه قوله تعالى « وأصلحوا ذات بينكم »(٤) .

ثالثا : إلى أمر الله بالتقوى ، فإن من خاف الله حق الخوف لا يبق

---

(١) أنظر : تفسير القرطبى ٣١٧/١٦ .

(٢) أنظر : حاشيه الشهاب على البيضاوى ٧٨/٨

(٣) سورة النساء /٥٩

(٤) سورة الأنفال /١

له عداوة إلا مع الشيطان كما قال تعالى : « إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً »(١) أ هـ (٢)

ويؤخذ من ذلك : أن مقاتلة البغاة مغياة برجوعهم إلى طاعة الله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم وطاعة أولى الأمر ، ويتمثل ذلك فى عودتهم إلى الصلح الذى أمر به الحق تعالى وذلك كله مبنى على تحقق خوف الله تعالى وتقواه فإن مقتضاهما : قصر الحرب والعداء على العدو الحقيق الذى هو الشيطان وما يخاد إليه من النفس الأمارة ، فإذا ما رجع البغاة إلى أمر الله وقبضوا أيديهم عن الحرب : كف القتال عنهم وتركوا ، كما قضت الآية الكريمة والسنة الشريفة المبينة لأحكام البغاة ، حيث قال ﷺ : « إن الله حكم فيمن بغى من هذه الأمة : أن لا يجهز على جريحها ولا يقتل أسيرها ولا يطلب هاربها ولا يقسم فيئها »(٣)

ثم بين الحق تعالى ما يجب إتخاذه حيال الفئتين بعد فيئة الباغية منهما فقال تعالى شأنه : « فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا » ، وإنما عبر بإن — التى تستعمل فى الشرط الذى لا يتوقع وقوعه — لإفادة ندرة الرجوع إلى أمر الله بعد مقاتلة البغاة ، إذ الأصل المتوقع أن تكون الفيئة من

(١) سورة فاطر / ٦

(٢) أنظر : مفاتيح الغيب : ٥٧٣/٧

(٣) خرجه الشهاب - فى حاشيته على البيضاوى - عن الحاكم ، كما خرجه عنه أيضاً : الإمام الآلوسى فى تفسيره (١٥١/٢٦) بلفظ : « يا ابن أم عبد — ويعنى به ابن عمر رضى الله عنهما كما فسرته رواية القرطبى : هل تدرى كيف حكم الله فيمن بغى من هذه الأمة ؟ قال : الله تعالى ورسوله أعلم ، قال لا يجهز على جريحها ... » الخ .

منطلق التقوى والخوف من الله تعالى لا من القتال (١) .

والمراد بالعدل ههنا : الفصل بينهما على حكم الله تعالى، وأصله : المساواة في المكافأة مطلقا (٢) .

وانما أمر الشارع بالإصلاح بينهما بالعدل دون اكتفاء بمتاركتهما بعد الفيئة : لاستئصال جذور الشحناء والخلاف لئلا ينشب القتال بينهما في وقت آخر .

وانما قيد الاصلاح — ههنا — بالعدل ولم يقيده قبل في قوله تعالى : « فأصلحوا بينهما » : لأن وقوع الإصلاح بعد المقاتلة مظنة للحيف والتحامل عليهم بالإساءة بخلافه قبل . ولما كان العدل - في الآية الكريمة - قيداً مخصصاً للإصلاح بين الفئتين : أتبعه سبحانه بالأمر العام بالعدل في جميع الأمور فقال : « وأقسطوا » أي : واعدلوا في كل أمر مفض الى أشرف درجة وأرفع منزلة وهي محبة الله تعالى .

فالأقساط : هو إزالة القسط — وهو الجور — فالهمزة فيه للإزالة ، والقاسط : هو الجائر وقد يستعمل القسط في مقابلة الإسلام بمعنى الجور عن طريق الحق وهو الإيمان والطاعة ومنه قوله تعالى : « وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً » (٣)

ثم بين الله تعالى جزاء المقسطين ، وهو أشرف الجزاء : محبة الله تعالى فقال جل شأنه : « إن الله يحب المقسطين » ، وهذه المحبة : قد فسرها العلماء ههنا بأمرين :

---

(١) أنظر مفاتيح الغيب : ٧/٥٧٣ — ٥٧٤

(٢) أنظر المفردات الراغب /٣٢٥ وتفسير البيضاوى ٢/٣٢٥

(٣) سورة الجن / ١٤ — ١٥

أولهما: عائد للعبد ذاته، وهو رضا الحق تعالى عنهم فيذكرهم بحسن الثناء .

والثاني :راجع لفعلهم الجميل ، وهو إنعامه تعالى عليهم بحسن الجزاء .
وقبل أن نشرح تفسير هذه الآية الكريمة : نذكر للامام القرطبي موقفه الرائع عما جرى بين صحابة سيدنا رسول الله ﷺ حيث قال : « لا يجوز أن ينسب الى أحد من الصحابة خطأ مقطوع به ، اذ كانوا كلهم اجتهدوا فيما فعلوه ، وأرادوا الله عز وجل ، وكلهم لنا أئمة ، وقد تعبدنا بالكف عما شجر بينهم ،وألا نذكرهم إلا بأحسن الذكر ، لحرمة الصحبة ولنهى النبى ﷺ عن سبهم وأن الله غفر لهم وأخبر بالرضا عنهم .. »(١) هذا الى جانب ما ذكره عن السلف الصالح من عبارات وضاءة فى هذا المجال(٢) .

ثم قال تعالى شأنه : —

— (إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون) — وارتباط صدر هذه الآية الكريمة بالآية السابقة : انه استئناف بيانى مقرر لمضمونها من الأمر بالاصلاح وتعليل له ولذلك كرره معطوفا عليه بالفاء فقال : (فأصلحوا بين أخويكم)، لأنه من لوازم الأخوة أن يصطلحا .

---

(١) أنظر تفسير القرطبى ٣٢١/١٦

(٢) من ذلك مارواه عن الامام ابن فورك من قوله ومن أصحابنا من قال : ان سبيل ماجرت بين الصحابة من المنازعات كسبيل ماجرى بين إخوة يوسف مع يوسف ، ثم إنهم لم يخرجوا بذلك عن حد الولاية والنبوة فكذلك الأمر فيما جرى بين الصحابة ،

وقد سئل الإمام الحسن البصرى رضى الله عنه عن قتالهم فقال : قتال شهده أصحاب محمد ﷺ وغبنا وعلموا وجهلنا ، واجتمعوا فاتبعنا ، واختلفوا فوقفنا .
(أنظر تفسير القرطبى ٣٢٢/١٦) .

و (إنما) تفيد ههنا(١) : قصر المؤمنين على صفة الأخوة لاستدعاء مترتبات الأخوة من التآلف ونبذ الشحناء .

وقد سمى الله تعالى المؤمنين إخوة لانتمائهم إلى أصل واحد وهو الإيمان الموجب للحياة الأبدية(٢) .

فهم أخوة فى الدين والحرمة لافى النسب. وقد قال الأثبات : إن أخوة الدين أثبت من أخوة النسب ، فإن أخوة النسب تنقطع بمخالفة الدين ، وأخوة الدين لاتنقطع بمخالفة النسب بدليل أن المسلم إذا مات وله أخ كافر يرثه المسلمون ولا يرثه الأخ الكافر من النسب، لأن الإسلام هو الأصل الجامع الصحيح المعتبر وأما الكفر ـ والعياذ بالله تعالى ـ فإنه جامع فاسد ونظيره: أبوة الزنا فإنها لاتوجب التوارث بين ولدى الرجل الواحد(٣).

وقد قضى الإسلام الحنيف بالعديد من الحقوق الشرعية الثابتة للأخوة

---

(١) يقرر البلغاء أن القصر بإنما : يفيد التذكير بالأمر الثابت المعلوم لينبنى عليه استدعاء ما يوجبه ، أنظر : دلائل الاعجاز الجرجانى ص ٢٥٤ ط المنار ١٢٧٢ .

(٢) ذكر الشهاب فى حاشيته (٧٨/٨) أن تسمية المؤمنين إخوة إنما هو على سبيل التشبيه أو الاستعارة التى شبهت فيها المشاركة فى الايمان بالمشاركة فى أصل التولد ، لأن كلا منهما أصل للبقاء ، فالتوالد منشأ الحياة ، والإيمان منشأ البقاء الأبدى فى الجنان وفى كل منهما قوة من وجه اهـ والذى نميل إليه : أنها أخوة حقيقية

(٣) أنظر أولا : تفسير القرطبى ٣٢٢/١٦ ثم أنظر تفسير الفخر الرازى ٥٧٥/٧

في الدين ، والواجبة للمسلم على أخيه المسلم ، والتي منها : الاصلاح بين كل مسلمين متخاصمين ، لقوله تعالى «فأصلحوا بين أخويكم» ، وكذا ماقررته تلك السورة الكريمة من حقوق وواجبات .

ومن تلك الحقوق ما نطق به الصادق المصدوق ﷺ : — فيما رواه الإمام — مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «لاتحاسدوا ، ولاتناجشوا ولا تباغضوا ولاتدابروا ، ولايبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخوانا ، المسلم أخو المسلم لايظلمه،ولايخذله ولايحقره ، التقوى ههنا — ويشير إلى صدره ثلاث مرات — بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام : دمه ، وماله ، وعرضه»(١) .

كما روى الإمام مسلم عن أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال : «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»(٢) ، وأحاديث هذا الباب في الصحيحين وغيرهما جد كثيرة . والمراد بالأخوين في قوله تعالى (بين أخويكم) : كل مسلمين تخاصما ، وقيل: المراد بهما : الأوس والخزرج ، لما تقدم في سبب النزول — وقيل:هما الطائفتان المقتتلتان وقد أطلق عليهما لفظ الأخوين: لأن لفظ التثنية قد يرد ويراد به الكثرة(٣) وقد قرىء (بين أخوتكم) كما قرىء (بين اخوانكم)(٤) ، وقد قال بعض اللغويين : الإخوة : جمع الأخ

---

(١) أنظر صحيح مسلم بشرح النووي : ١٢٠/١٦ ط المصرية .

(٢) أنظر صحيح مسلم بشرح النووي : ١٣٩/١٦ ط المصرية

(٣) أنظر تفسير القرطبي ٣٢٣/١٦

(٤) نفس المصدر

من النسب ، والإخوان جمع الأخ من الصداقة(١) وإنما وضع المظهر موضع المضمر(٢) مضافا إلى المأمورين للمبالغة فى تأكيد وجوب الاصلاح والتحضيض عليه .

وتخصيص الاثنين بالذكر لإثبات الاصلاح فيما تجاوز الاثنين بطريق الأولوية ، لتضاعف الفتنة والفساد فيه .

ثم أتبع سبحانه الأمر بالإصلاح بين الأخوين بالأمر بتقواه، فقال: (واتقوا الله لعلكم ترحمون) وهنا نجد بعض المفسرين — كأبى السعود — يجعل متعلق الأمر بالتقوى عاما فيقول : (واتقوا الله) فى كل ما تأتون وماتذرون من الأمور التى من جملتها : ما أمرتم به من الاصلاح(٣) .

بينما نجد مفسرا آخر كالفخر الرازى يربط بين الأمر بالتقوى وفحوى الآية الكريمة ربطا محكما يجعل هذا الأمر خاصا بما ذكر فيها ، فيجعل المخاطب بهذا الأمر هو نفسه المخاطب بقوله (فأصلحوا بين أخويكم) أى من يقوم بالإصلاح ، ويجعل متعلق الأمر بالتقوى هو الإصلاح نفسه، ذلك : أنه عند القيام بالإصلاح بين المتقاتلين إذا كانا أخوين وليسا طائفتين — كما فى الآية السابقة — فربما تسول للقائم بالإصلاح نفسه تأكيد الخصام بين الأخوين لغرض فاسد من ثم كان الأمر بالتقوى ههنا دون الآية السابقة التى يكون القتال فيها طائفيا يخشى استشراء ضرره إلى القائم بالإصلاح نفسه فيكون أحرص فى هذه الحالة على الإصلاح ولذا لم يؤمر بالتقوى .

---

(١) أنظر مفاتيح الغيب ٥٧٤/٧

(٢) أى : قال : (بين أخويكم) ولم يقل (بينهم) .

(٣) أنظر تفسير أبى السعود بهامش مفاتيح الغيب ٧٥٤/٧

كذلك يضيف احتمالا آخر ، وهو : أن قوله تعالى : « فأصلحوا » إشارة إلى الصلح وقوله تعالى : « واتقوا الله » إشارة إلى ما يصونهم عن التشاجر ، لأن من اتق الله شغلته تقواه عن الاشتغال بغيره(١) .

ثم يبين سبحانه ثمرة التقوى ونتيجتها المرجوة للتقوى بقوله تعالى : « لعلكم ترحمون » أي : واتقوا الله راجين أن ترحموا بتقواكم ، ثم قال تعالى شأنه :ـ

« يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون » .

° ° °

جاءت هذه الآية الكريمة مصدرة بالنداء الإيمانى الرابع فى هذه السورة المباركة : لتربية المجتمع الإيمانى المسلم بمكارم الأخلاق ومعالى الأمور . فجاءت للإرشاد إلى ما ينبغى أن يكون عليه المؤمن فى علاقته بأخيه المؤمن لا سيما فى حضوره معه من ترك إيذائه بالازدراء بحاله ومنصبه بأى طريق من الطرق المنصوص عليها فى الآية الكريمة .

وإنما جاء النهى عن تلك النقائص المذكورة : من منطلق ترسيخ قاعدة الأخوة الإيمانية التى وردت بها الآية السابقة لتلافى ما ورد فى سابقتها من وقوع الشحناء والتقاتل والبغى وكلها عوامل تفرقة وتصدع لصف الأمة الواحدة ولبناء المجتمع الإسلامى .

---

(١) انظر مفاتيح الغيب ٥٧٤/٧ .

وأما عن أسباب نزولها : فقد وردت عدة روايات جاء بعضها بأسباب نزولها على الجملة كما ورد بعضها الآخر بأسباب نزول فقرات منها .

فما ورد فى سبب نزولها ـ جملة ـ مارواه الواحدى وأسنده القرطبى إلى الامام ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ من أنها نزلت فى ثابت بن قيس ابن شماس ، وذلك أنه كان فى أذنيه وقر فكان إذا أتى رسول الله ﷺ أوسعوا له حتى يجلس إلى جنبه فيسمع مايقول لجاء يوماً وقد أخذ الناس مجالسهم ، فجعل يتخطى رقاب الناس ويقول : تفسحوا تفسحوا فقال له رجل : قد أصبت مجلساً فاجلس ، فجلس ثابت مغضباً ، فغمز الرجل ، فقال : من هذا ؟ فقال : أنا فلان ، فقال ثابت : ابن فلانة ؟ — وذكر أماً كانت له يعير بها فى الجاهلية ، فنكس الرجل رأسه استحياء ، فأنزل الله تعالى هذه الآية(١) .

وثمة رواية أخرى عن الضحاك ومقاتل(٢) : أن الآية الكريمة نزلت فى وفد بنى تميم — الذى تقدم ذكرهم فى أول السورة — استهزءوا بفقراء الصحابة مثل : سادتنا ، عمار وخباب وابن فهيرة ، وبلال ، وصهيب ، وسلمان ، وسالم — مولى أبى حذيفة — وغيرهم ، لما رأوا من رثاثة حالهم . فنزلت فى الذين آمنوا منهم(٣) .

---

(١) انظر : أسباب النزول للواحدى بتحقيق السيد صقر ص ٤١٥ ـ اللفظ منه — وانظر الرواية فى تفسير القرطبى ١٦/٣٢٤ ـ ٣٢٥ .

(٢) أخرجها الامام السيوطى عن مقاتل فى الدر المنثور ٦/٩١ وأسندها القرطبى فى تفسيره لضحاك .

(٣) انظر تفسير القرطبى ١٦/٣٢٥ .

وقد جاء النهى الأول فى الآية الكريمة عن سخرية قوم من قوم - أى قوم منكم من آخرين منكم أيضاً[١] .

والعلماء فى معنى السخرية أقوال :

فهى الأصل - كما فى مفردات الراغب[٢] - الهزء بالمسخور منه .

وهى - كما فى الزواجر - : النظر إلى المسخور منه بعين النقص[٣] .

ونقل الآلوسى عن القرطبى أنها : الاستحقار والاستهانة ، والتنبيه على العيوب والنقائص بوجه يضحك منه ، وقال - : وقد تكون بالمحاكاة بالفعل والقول أو الإشارة أو الإيماء أو : الضحك على كلام المسخور منه إذا تخبط فيه أو غلط ، أو : على صنعته أو قبح صورته[٤] .

كما نقل الشهاب - فى حاشيته - عن الإحياء الإمام الغزالى أنها : ذكر نقائص المرء بحضرته على وجه يضحك منه - ثم قال - وهى فى الأغلب بحضر من الناس ، فعبر عنهما بالقوم : لكون كل منهما فى جماعة ، سواء كانت فى جماعة المسخور منه جماعة الساخر أو : لا ، فكم من ملتذ بها وكم من متألم منها ، فجعل ذلك بمنزلة تعدد الساخر والمسخور منه ، ولوقوعه فيما بينهم نسب لهم[٥] . اهـ ومن ثم : لم يقل « نفس من نفس » : لأن الساخر

---

(١) فالتنوين فى الموضعين للتبعيض كما ذكره الآلوسى .

(٢) انظر المفردات /٢٢٧

(٣) انظر : روح المعانى ١٥٢/٢٦

(٤) نفس المصدر السابق ، وقد نقل فيه هذا النص عن القرطبى من غير هذا الموضع من تفسيره .

(٥) انظر حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى ٧٩/٨

متكبر ويحب أن يرى جبروته على رؤوس الأشهاد ، والقوم - في الأصل - : جماعة الرجال دون النساء(١) ، ولذا قوبل بالنساء هنا .

ولفظه : إما مصدر نعت به فشاع في الجمع . وإما جمع لقائم - كزائر وزور - وقد خص الرجال لما أن القيام بالأمور وظيفة الرجال كما قال سبحانه : « الرجال قوامون على النساء ... »(٢) .

وأما اطلاقه على مجموع الرجال والنساء في بعض المواضع ، كقوم عاد وثمود : فإما أن يكون ذلك على سبيل التغليب ، أو الاكتفاء بذكر الرجال عن ذكرهن ، لأنهن توابع .

وقوله سبحانه : « عسى أن يكونوا خيراً منهم » تعليل للنهي عن السخرية أو لموجب النهي ، والمعنى : عسى أن يكون المسخور منهم خيراً وأعظم قدراً عند الله من الساخرين ، ويحتمل أن يكون المراد من قوله : « أن يكونوا » : الصيرورة ، بمعنى أو يصيروا ... ؛ فإن من احتقر إنساناً لفقره أو ضعفه : لا يأمن أن يفتقر هو ويستغني الفقير ، ويضعف هو ويقوى الفقير ، ففي هذا التعليل الرباني تربية وتبصير وتأديب وتهذيب لمن غرتهم أنفسهم الأمارة بالسوء .

و (عسى) هنا : إما تامة لا تحتاج إلى خبر ، لإسنادها إلى (أن والفعل) وهما في محل الرفع ، وإما ناقصة وقد سد ما بعدها مسد الاسم والخبر(٣) وقد قرىء (عسوا أن يكونوا) و (عسين أن يكن) فهي على هذا ذات خبر ، والخبر هو المصدر (خيراً) للمبالغة أو على تقدير مضاف مع الاسم أو الخبر أو تكون عسى بمعنى قارب ، وأن وما معها مفعول(٤) .

---

(١) انظر المفردات /٤١٨ (٢) سورة النساء/٣٤

(٣) انظر تفسير البيضاوي بحاشية الشهاب ٧٩/٨

(٤) انظر تفسير البيضاوي بحاشية الشهاب ٧٩/٨

ثم قال تعالى : ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن) .

وفى سبب نزولها : يروى الواحدى عن أنس – رضى الله عنه – أنها نزلت فى نساء النبى ﷺ عيرن أم سلمة بالقصر(١) .

كما روى عن عكرمة عن الإمام ابن عباس – رضى الله عنهما – أنه قال: إن صفية بنت حي بن أخطب أتت رسول الله ﷺ ، فقالت: يارسول الله: إن النساء يعيرنني ويقلن يايهودية بنت يهوديين، فقال رسول الله ﷺ: هلا قلت: إن أبي هارون ، وإن عمي موسى ، وإن زوجي محمد ؟؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية(٢) .

قال القرطبي عند تفسيرها : أفرد النساء بالذكر : لأن السخرية منهن أكثر .

وقد روى الإمام أحمد والترمذى عن السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت : «حكيت النبى ﷺ رجلا(٣) فقال : مايسرنى أنى حكيت رجلا وأن لى كذا وكذا . . . – قالت – فقلت: يارسول الله، إن صفية امرأة – وقال بيده . . . كأنه يعنى قصيرة(٤) – فقال : لقد مزجت بكلمة لو مزج بها ماء البحر مزجت(٥) .

---

(١) أنظر أسباب النزول للواحدى ص٤١٦

(٢) نفس المصدر .

(٣) يقال : حكيت فلانا وحاكيته : أى فعلت مثل فعله .

(٤) القائل هو الراوى حكاية عن السيدة عائشة رضى الله عنها .

(٥) أنظر المسند ٦/١٨٩ وأنظر تفسير القرطبى ١٦/٣٢٦

وهكذا يعطينا معلم الإنسانية ﷺ أروع التوجيهات الخلقية التي بها خير أمة أخرجت للناس. فربى بها خيرة السلف الصالح وتمثلت تلك الكمالات فيهم رأى العين فيقول الإمام القرطبي في هذا الصدد: «ولقد بلغ بالسلف إفراط توقيهم وتصونهم من ذلك أن قال عمرو بن شرحبيل: لو رأيت رجلا يرضع عنزاً فضحكت منه: لخشيت أن أصنع مثل الذي صنع!

وعن عبد الله بن مسعود: البلاء موكل بالقول، لو سخرت من كلب لخشيت أن أحول كلباً (١) !!

وقال بن زيد لا يسخر من ستر الله عليه ذنوبه ممن كشفه الله، فلعل إظهار ذنوبه في الدنيا خير له في الآخرة (٢)

ثم قال تعالى: «ولا تلمزوا أنفسكم»، أي: لا يعتب بعضكم بعضاً.

فاللمز — كما قال الراغب — هو: الاعتياب وتتبع المعايب(٣)، وقال البيضاوي: «واللمز الطعن باللسان». وهذا تخصيص له بالقول، وتضييق لمعناه اللغوي.

والحق أن اللمز في اللغة أعم من ذلك كما يؤخذ من محصلة أقوال اللغويين. ففي معجم ألفاظ القرآن الكريم: «لمز فلاناً يلمزه ويلمزه — أي بكسر الميم وضمها في المضارع — لمزا: عابه أو طعن في عرضه بقول أو فعل، فهو لامز»(٤) وعلى هذا فهو شامل للطعن والاعتياب في الحضور وفي الغيبة،

---

(١) المصدر السابق ٣٢٥/١٦

(٢) نفس المصدر والصحيفة

(٣) أنظر المفردات/ ٤٥٤

(٤) أنظر المعجم: مادة (ل م ز): ٤٠٢/٢

بالقول أو الفعل . وقد ورد فى التفسير المأثور ما يستفاد منه جملة هذا العموم فى المدلول ، فعن الإمام ابن عباس — رضى الله عنهما — فى قوله تعالى « ولا تلمزوا أنفسكم » قال : لا يطعن بعضكم على بعض . ومثل ذلك أثر عن مجاهد رضى الله عنه ، وقال الضحاك رضى الله عنه اللمز الغيبة [١] بيد أن الإمام الفخر قد رجح دلالة اللمز على الطعن فى الحضور [٢] و : (أنفسكم) فى الآية الكريمة : عبارة عن بعض آخر من جنس المخاطبين وهم المؤمنون فجعل ما هو من جنسهم بمنزلة أنفسهم كما فى قوله تعالى : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » [٣] وقوله تعالى : « ولا تقتلوا أنفسكم » [٤] فإطلاق الأنفس على الجنس من قبيل الاستعارة .

والحكمة الربانية فى هذا التعبير : « ولا تلمزوا أنفسكم » : بيان وحدة الذاتية الإيمانية فى المؤمنين وأنهم كنفس واحدة ، فلو عاب مؤمن أخاه فى الإيمان فى الحقيقة لقد عاب نفسه ، وهذا أعظم تجسيد لرابطة الأخوة الإيمانية التى قررتها السورة الكريمة آنفاً وقد عاضدت السنة النبوية الشريفة القرآن الكريم فى تجسيد تلك الرابطة بقـــوله ﷺ : « ترى المؤمنين فى تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضواً تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى » [٥]

---

(١) أنظر هذه التفاسير المأثورة فى الدر المنثور ٩١/٦

(٢) بنى الفخر ترجيحه لذلك على النظر إلى قلب الحروف فإن قلب (لمز) : (لزم) وهو يدل على القرب ، أنظر مفاتيح الغيب ٥٧٧/٧

(٣) سورة التوبة / ١٢٨

(٤) سورة النساء / ٢٩

(٥) رواه البخارى بسنده عن النعمان بن بشير فى كتاب الأدب من صحيحه ٣٦/٤

هذا : والنهى هنا عن اللمز نظير النهى السابق عن السخرية فى كونه كل منهما مخصوصاً بالمؤمنين بيد أن ذكر النهى عن اللمز فى أثر النهى عن السخرية من قبيل ذكر العام بعد الخاص: حيث أن السخرية ذكر الشخص بما يكره على وجه مضحك فى حضرته ، واللمز : ذكره بما يكره مطلقاً(١) .

وقد ذكر البيضاوى وجها آخر فى تفسير : « ولا تلمزوا أنفسكم » وهو أن المعنى : لا تفعلوا ما تلمزون به ، فإن من فعل ما استحق به اللمز فقد لمز نفسه ،وعلى هذا :فقد تجوز فى : (تلمزوا) تجوزا فى الإسناد بإطلاق المسبب على السبب ، ويبق (أنفسكم) على ظاهرة ، بيد أن الوجه الأول أولى : لبعد الثانى عن السياق وعدم مناسبته لما بعده وهو :

قوله تعالى : « ولا تنابزوا بالألقاب » :

وسبب نزولها: مارواه الإمام أحمد والترمذى عن أبى جبيرة بن الضحاك الأنصارى عن عمومة له ، قالوا : قدم النبى ﷺ وليس أحد منا الا له لقب أو لقبان . قال : فكان إذا دعا بلقبه ، قلنا : يا رسول الله ، أن هذا يكره هذا ، قال : فنزلت : « ولا تنابزوا بالألقاب »(٢) أ هـ

وقد روى القرطبى عن الإمامين : الحسن ومجاهد ـ رضى الله عنهما ـ أنهما قالا : « كان الرجل يعير بعد إسلامه بكفره ، يا يهودى، يانصرانى فنزلت (٣) .

---

(١) ذكر الشهاب فى حاشيته (٧٩/٨) مع علاقة العموم والخصوص علاقات أخرى كعطف العلة على المعلول .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند ٦٩/٤ ـــ واللفظ منه ـــ كما أخرجه أبو داود والترمذى وغيرهما .

(٣) أنظر : تفسير القرطبى ٣٢٨/١٦ .

والنبز : — بتسكين الباء — مصدر نبذ ينبزه ، أى لقبه يلقبه ، فالنبز فى الأصل : هو التلقيب ، والنبز - بفتح الباء - هو اللقب .

ويطلق النبز - بالسكون - بالتخصيص العرفى : على التلقيب بلقب السوء . وهو المنهى عنه فى الآية الكريمة ، مالم يقصد به الاستخفاف بصاحبه أو إيذاءه ، وذلك : إذا مادعت الضرورة إليه لتوقف معرفة الملقب عليه كقول المحدثين : الأعمش والأجدب ونحوه .

فالمعنى فى الآية الكريمة : ولا يدع بعضكم بعضاً بلقب السوء(١) .

وإنما جاء النبز بصيغة المفاعلة - ولم يأت اللمز كذلك - لأن النبز يفضى فى الحال إلى التنابز لكون التلقيب بالمكروه من السهولة بمكان ، بينما فى اللمز قد لايجد الملموز فى اللامز عيباً فى الحال فيظل يتتبع أموره حتى يصل إلى عيب يلمزه به ، فيظل اللمز من جانب واحد حتى يلامزه(٢) .

وقد روى - فى تفسير التنابز - عن الأئمة : الحسن ومجاهد وقتادة رضوان الله عليهم أجمعين أنهم قالوا : هو قول الرجل الرجل : يافاسق ، يامنافق(٣) .

وعن الامام مجاهد رضى الله عنه أنه قال فى تفسيرها : يدعى الرجل بالكفر وهو مسلم(٤) .

---

(١) انظر تفسير البيضاوى بحاشية الشهاب ٨/٨٠ .

(٢) انظر مفاتيح الغيب ٧/٥٧٧ .

(٣) انظر تفسير القرطبى ١٦/٣٢٨

(٤) انظر الدر المنثور ٦/٩٢

وفى هذا المعنى : روى البخارى بسنده عن أبى ذر - رضى الله عنه - أنه سمع النبى ﷺ يقول : « لا يرمى رجل رجلا بالفسوق ، ولا يرميه بالكفر إلا ارتدت عليه مالم يكن صاحبه كذلك »(١).

وعن الامام ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه قال : « التنابز بالألقاب أن يكون الرجل قد عمل السيئات ثم تاب ، فنهى الله أن يعير بما سلف من عمله »(٢).

ويدل على هذا التفسير : قوله ﷺ : « من عير أخاه بذنب لم يمت حتى يعمله »(٣).

وأما قوله تعالى : « بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان » :

فإن المراد بالاسم فيه : الذكر المرتفع ، أى : ما يذكر به الشخص ويسمى مطلقاً فإن الاسم مشتق من السمو والعلو والارتفاع ، فيقال : طار اسمه فى الناس بالكرم أو باللؤم ، أى : اشتهر ذكره وارتفع بذلك.

وللمفسرين فى المراد بهذه العبارة وجهان :

أحدهما : ذم وتهجين نسبة الكفر والفسوق إلى المؤمنين وتلقيبهم بهما بعد توبتهم منهما.

والمعنى : ما أقبح ذكركم اخوانكم من المؤمنين بفسق كان فيهم بعد

---

(١) انظر صحيح البخارى : كتاب الأدب ٣٩/٤

(٢) انظر الدر المنثور ٩١/٦

(٣) أخرجه الترمذى فى كتاب صفة القيامة من سننه ٦٦١/٤

ماتابوا عنه وآمنوا بأن يقال للرجل منهم : يايهودي ، أو يانصراني ، أو يازاني .

وعلى هذا : تكون جملة فعل الذم متعلقة بقوله : «ولاتنابزوا ..» وعلة للنهى عنه(١) .

وثانيهما : أن يكون المراد بالعبارة : الدلالة على أن مانهى عنه ـ فى الآية الكريمة ـ من السخرية واللمز والتنابز فسق ، وأن الجمع بين ارتكاب ذلك وبين الإيمان قبيح ويكون المعنى : بئس الذكر المرتفع أن يرتفع ذكركم بالفسق بسبب ارتكابكم لشىء مما نهيتم عنه من السخرية واللمز والنبز بعد أن ذكرتم واشتهرتم بالإيمان .

وعليه : تكون جملة فعل الذم متعلقة بجميع ماتقدم من النواهى فى الآية الكريمة ، وعلة للنهى عن جميع ذلك(٢) .

والمخصوص بالذم فى العبارة : هو إما (الفسوق) وإما محذوف تقديره (هو) ويكون الفسوق بدلا من الاسم ، لإفادة أنه فسق أما لكونه كبيرة فى ذاته ، أو لكونه فى العادة يتكرر فيصير بتكرره كبيرة وإن كان فى الأصل من الصغائر(٣) ولذلك قال سبحانه : «ومن لم يتب فأولئك هم

---

(١) يؤيد هذا الوجه تفسير الامام ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ الذى مر آنفاً فى تفسير التنابز بالألقاب .

(٢) انظر حاشية الشيخ محي الدين زادة على تفسير القاضى البيضاوى : ٢٧٣/٤ .

(٣) انظر تفسير الجلالين بحاشية الجمل عليه ١٨٢/٤ط/ التجارية (والمؤلف فيما نقله تصرف .

الظالمون ». أى : ومن لم يترك ذلك ولم يقلع عن تلك المنهيات ويصر على ارتكابها وجعلها له عادة . فهو ظالم لنفسه بوضعه العصيان موضع الطاعة (١) وتعريض النفس للعذاب . ويجوز فى الآية : أن يراد بالنهى فى قوله تعالى : « لا يسخر .. » و « لا تلمزوا .. » و « لا تنابزوا .. » المنع عن تلك المنهيات فى المستقبل، ويكون المراد بقوله « ومن لم يتب .. » الأمر بالتوبة عما مضى .

ثم قال تعالى شأنه :

« يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم » .

* * *

وهذه الآية الكريمة متممة لما قبلها فى تنظيم علاقة المؤمن بإخوته فى المجتمع الإيمانى ومبينة لجانب من حقوق المؤمن على أخيه فى الإيمان ، وواجبه نحوه ، ومشتركة مع سابقتها فى تشخيص طائفة من الأدواء والأمراض الاجتماعية ، واستئصال جذورها من جسد المجتمع المسلم ، مجتمع الإيمان والتقوى .

وقد ربط العلامة الفخر — فى تفسيره — بين هذه الآية الكريمة وبين سابقتها بأن الظن هو السبب فيما تقدم ، وعليه تبنى القبائح ، ومنه يظهر العدو المكاشح ، فالقائل إذا أوقف أموره على اليقين لقلما يتيقن فى أحد

---

(١) حقيقة الظلم فى اللغة : وضع الشيء فى غير موضعه المختص به ، أما بنقصان أو بزيادة وأما بعدول عن وقته أو مكانه . (انظر المفردات /٣١٥) .

عيباً فيلمزه به ، فإن الفعل فى الصورة قد يكون قبيحاً وفى نفس الأمر لا يكون كذلك ، لجواز أن يكون فاعله ساهياً أو يكون الرائى مخطئاً (١) .

وقد روى — فى سبب نزول الآية الكريمة — أن رجلين من الصحابة بعثا سلمان إلى رسول الله ﷺ يبغى لهما اداما — وكان أسامة على طعامه صلى الله عليه وسلم — فقال : ماعندى شىء ، فأخبرهما سلمان ، فقالا : لو بعثناه إلى بئر سميحة (٢) لغار ماؤها فلما راحا إلى رسول الله ﷺ قال لهما : « مالى أرى خضرة اللحم فى أفواهكما » (٣) ؟

فقالا : ماتناولنا لحما ، فقال : « انكما قد اغتبتما » ، فنزلت (٤) .

ومعنى قوله تعالى (اجتنبوا ..) : تباعدوا ولا تقربوا ، فأصل (اجتنب) فى اللغة كان على جانب منه ، ثم شاع فى التباعد اللازم له .

وقد بين الامام الطبرى — عليه رضوان الله — مصدر الآية الكريمة

---

(١) انظر مفاتيح الغيب ٥٧٨/٧ .

(٢) سميحة — بئر قديمة بالمدينة عرفت بغزارة مائها .

(٣) هذه معجزة محمدية باهرة ، حيث رأى ﷺ أثر الغيبة محسوساً على أفواههما لحماً أخضرا وقد كنى بكونه أخضر عن أنه لحم ميتة ، لان لحم الجيف يرى كأنه أخضر ففيه زيادة تهجين له .

(٤) رواه الزمخشرى عن الامام ابن عباس رضى الله عنهما وتبعه البيضاوى وأبو السعود كل فى تفسيره دون تخريج وأخرجه الامام الآلوسى فى تفسيره (١٥٩/٢٦) عن ابن أبى حاتم عن السدى ، كما رواه القرطبى — بلفظ مطول — عن الثعلبى .

فى تفسيره بقوله : « يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله . لاتقربوا كثيراً من الظن بالمؤمنين ... »(١) .

وإنما نكر (كثيراً) لقصد الإبهام ، لكى يحتاط فى كل ظن ويتأمل حتى يعلم من أى قبيل هو ؟ فإن للظن أنواعاً وأحكاما ولابد لبيانها من الوقوف على حقيقته أولا .

فأصل الظن فى اللغة : اسم لما يحصل عن أمارة ، ومتى قويت أدت إلى العلم ، ومتى ضعفت جداً لم يتجاوز حد التوهم(٢) .

وللظن أنواع جرى بها استعماله فى اللغة وفى لسان الشرع :

فمنها : أن يقع فى النفس شىء من غير دلالة بحيث لايكون ذلك أولى من ضده فهذا هو الشك(٣) .

ومنها : التهمة ، وهى أقوى من الشك ويطلق على هذا النوع : الظنة فيطلق الظنين فى اللغة على المتهم(٤) .

ومنها : يقين التدبر ، وهو اليقين المبنى على استدلال ، وهو غير يقين العيان الذى يقال له علم(٥) .

---

(١) انظر : جامع البيان ١٣٤/٢٦ .

(٢) انظر : المفردات للراغب /٣١٧ ط الحلبى .

(٣) انظر : لسان العرب ١٤٢/١٧ وتفسير القرطبى ٣٣٢/١٦ .

(٤) انظر : لسان العرب ١٤٤/١٧ وتفسير القرطبى ٣٣١/١٦ .

(٥) انظر لسان العرب ١٤٢/١٧

وينقسم الظن باعتبار أحكامه إلى أقسام ثلاثة :

الأول : قسم يجب اتباعه كحسن الظن بالله تعالى ، وكالظن حيث لاقاطع فيه من العمليات كالواجبات الثابتة بغير دليل قطعى ، وأكثر أحكام الشريعة مبنية على غلبة الظن(١) .

الثانى : قسم يحرم اتباعه : كالظن فى الإلهيات والنبوات ، وحيث يخالفه الدليل القاطع وكسوء الظن بالمؤمنين .

والثالث : قسم يباح اتباعه ، كالظن فى الأمور المعاشية (٢) .

وقد زاد البغوى قسما رابعا نقله عنه العلامة الجمل ، وهو : الظن المندوب اليه وهو : الظن الحسن بالأخ المسلم الظاهر العدالة(٣) .

وقد أمر الحق تعالى عباده — فى الآية الكريمة — باجتناب النوع الثانى من أنواع الظن ، وهو التهمة التى لاتستند إلى موجب حقيق ، وهو — نفسه — النوع الذى ورد فى الحديث الشريف الذى رواه أبو هريرة — رضى الله عنه — عن النبى ﷺ أنه قال :

« إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ، ولاتجسسوا ولا تدابروا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخوانا » (٤) .

---

(١) انظر : تفسير القرطبى ٣٣٢/١٦ وانظر : روح المعانى ١٥٦/٢٦ .

(٢) انظر تفسير البيضاوى بحاشية الشهاب ٨٠/٨ و : روح المعانى ١٥٦/٢٦

(٣) انظر : حاشية الجمل على الجلالين ١٨٣/٤ ط التجارية .

(٤) انظر صحيح البخارى - كتاب الأدب - ٤١/٤ .

فقد أورده القرطبي في تفسير الآية الكريمة وعقب عليه بقوله :

« قال علماؤنا : فالظن هنا وفي الآية : هو التهمة ، ومحل التحذير والنهي إنما هو تهمة لاسبب لها يوجبها ، كمن يتهم بالفاحشة أو بشرب الخمر — مثلا — ولم يظهر عليه مايقتضي ذلك .

ودليل كون الظن هنا بمعنى التهمة : قوله تعالى « ولاتجسسوا » وذلك أنه قد يقع له خاطر التهمة ابتداء ، ويريد أن يتجسس خبر ذلك ويبحث عنه ، ويتبصر ويستمع لتحقق ماوقع له من تلك التهمة ، فنهى النبي ﷺ عن ذلك وإن شئت قلت : — والذي يميز الظنون التي يجب اجتنابها عما سواها : أن كل مالم تعرف له أمارة صحيحة وسبب ظاهر . كان حراما واجب الاجتناب ، وذلك . إذا كان المظنون به ممن شوهد منه الستر والصلاح ، وأونست منه الأمانة في الظاهر ، فظن الفساد به والخيانة محرم ، بخلاف من اشتهره الناس بتعاطي الريب والمجاهرة بالخبائث (١) .

كذلك يضيف الإمام الفخر تبيانا رائعا للظن المأمور باجتنابه في الآية الكريمة — من خلال استعراض ألوان الظن واستنباط حصر المراد في (الظنة) بما يشبه السبر والتقسيم عند المناطقة فقال :

« إن الله تعالى لم يقل : اجتنبوا أن تقولوا أمرا على خلاف ماتعلمونه ولا قال : اجتنبوا الشك ، بل أول مانهى عنه . هو القول بالظن ، وذلك : لأن القول على خلاف العلم كذب وافتراء ، والقول بالشك والرجم بالغيب سفه وهزء ، وهما في غاية القبح ، فلم ينه عنه اكتفاء بقوله تعالى : « ياأيها

---

(١) انظر : تفسير القرطبي ١٦/٢٣٢ .

الذين آمنوا . . . » ، لأن وصفهم بالإيمان عنعهم من الافتراء والارتياب(١) الذى هو دأب الكافر ، وإنما منعهم عما يكثر وجوده فى المتدين ، ولذلك قال فى الآية : «ولا يسخر . . . »(٢) .

ومن ثم يتأكد أن الظن المراد ههنا هو ظن السوء بالمسلم حيث لا دليل عليه ولا شاهد يرجحه وهو المسمى بالظنة ، وهو أكذب الحديث كما مر فى أطيب الحديث .

وقد بينت السنة الشريفة أن تحريم ظن السوء بالمؤمن إنما هو منطلق عظم حرمة المؤمن عند الله تعالى : فقد أخرج ابن ماجه فى سننه عن سيدنا عبد الله بن عمرو رضى الله عنه قال : « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف بالكعبة ويقول : « ما أطيبك وأطيب ريحك ، ما أعظمك وأعظم حرمتك ، والذى نفس محمد بيده : لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك ماله ، ودمه ، وأن نظن به إلا خيرا »(٣) .

وما أروع ما أثر فى هذا الصدد عن أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه من قوله :

« من تعرض للتهمة فلا يلومن من أساء به الظن ، ومن كتم سره كان الخيار إليه ، ومن أفشاه كان الخيار عليه ، وضع أمر أخيك على أحسنه حتى

---

(١) لعله يعنى بالارتياب ههنا ، الشك والرجم بالغيب ـ كما يوضحه مساق الكلام ـ لا الظنة المرادة فى الآية حتى لا يفضى ذلك إلى التناقض .

(٢) أنظر مفاتيح الغيب ٥٧٩/٧

(٣) أنظر سنن ابن ماجه ـ كتاب الفتن ، باب حرمة دم المؤمن وماله ، ١٢٩٧/٢

يأتيك فيه ما يغلبك ، ولا تظن بكلمة خرجت من أخيك سوءا وأنت تجد لها في الخير محملا ، وكن في اكتساب الإخوان فإنهم جنة عند الرخاء وعدة عند البلاء. وآخ الإخوان على قدر التقوى ، وشاور في أمرك الذين يخافون الله »(١) :

وقد قرر الإثبات : أن ظن السوء منهي عنه نفسه أن كان اختياريا وإذا لم يكن اختياريا فالمنهي عنه هو العمل بموجبه من : احتقار المظنون به وتنقيصه ، وذكره بما ظن فيه ، وقد قيل : أن ذلك نظير الحسد — على تقدير كونه غير اختياري ، ولا يضر العمل بموجبه بالنسبة إلى الظان نفسه ، كما إذا ظن بشخص أنه يريد به سوءا فتحفظ من أن يلحقه منه أذى على وجه لا يلحق به ذلك الشخص نقص ، وقد قيل : إن ذلك هو محل الحديث الشريف الذي رواه الطبراني : « احترسوا من الناس بسوء الظن »(٢) .

وقد وضعت السنة الشريفة العلاج الناجع لتلك الأمراض القلبية الغير اختيارية والتي ليست موردا للتكليف — قبل أن يستشري خطرها فتعصف بصاحبها وتشعل ضرامها في الغير ، إذ قال معلم الإنسانية وطبيب أمراضها ﷺ : —

« ثلاث لازمات أمتي : الطيرة ، والحسد ، وسوء الظن .

---

(١) روى هذا الأثر الشريف الإمام السيوطي في الدر المنثور ٩٢/٦ وأخرجه عن الزبير بن بكار في الموفقيات .

(٢) خرجه صاحب الفتح الكبير (٥٠/١) عن الطبراني في الأوسط مرويا عن أنس رضي الله عنه .

فقال رجل : ما يذهبهن يا رسول الله عمن هن فيه ؟؟

قال : إذا حسدت فاستغفر الله ، وإذا ظننت فلا تحقق ، وإذا تطيرت فامض»[١] .

وأما قوله تعالى : « إن بعض الظن إثم » : فهو تعليل للأمر باجتناب كثير من الظن أو : تعليل لموجب ذلك الأمر بطريق الاستئناف التحقيقي[٢]، و (بعض الظن) المذكور كثير ، كظن السوء بأهل الخير من المؤمنين وهم كثير .

والإثم : يطلق على الذنب الذى يستحق العقوبة عليه ، وقد أبان الراغب عن أصله بقوله : « والإثم والآثام : اسم للأفعال المبطئة عن الثواب »[٣] .

وأما قوله تعالى : « ولا تجسسوا » : فهو إتمام لما سبقه ، لأن الأمر باجتناب كثير من الظن دال على أن اليقين هو المعتبر ، فربما يلتمس اليقين بتتبع عيوب المسلمين والاطلاع على عوراتهم فنهى الله تعالى عن ذلك بقوله سبحانه « ولا تجسسوا » ، فيكون المعنى . لاتتبعوا كثيرا من الظن ولا تجتهدوا فى طلب اليقين فى معايب الناس وتتبع عورات المسلمين وهتك أستارهم .

---

(١) خرجه صاحب الفتح الكبير (٢/٥٠) عن الطبرانى فى الكبير ، مرويا عن حارثة بن النعمان .

(٢) أنظر تفسير أبى السعود بهامش مفاتيح الغيب ٧/٧٥٥

(٣) أنظر المفردات /١٠

والتجسس : تفعل من الجس ، وهو البحث عن الشيء ، ويطلق في الأصل على : مس العرق وتعرف نبضه الحكم به على الصحة والسقم(١) ، فأطلق الجس على البحث باعتبار ما في أصل معناه من الطلب ، فإن من يطلب الشيء يجسه ويمسه(٢) ومنه قيل الجاسوس لمن يبحث الأمور والمعنى المراد من قوله (ولا تجسسوا) : ولا تبحثوا عن عورات المسلمين .

وقد قال الإمام ابن عباس — رضي الله عنهما — في تفسيرها : « نهى الله المؤمن أن يتتبع عورات أخيه المؤمن »(٣) .

وقد روى الإمام أحمد بسنده عن ثوبان رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « لا تؤذوا عباد الله ولا تعيروهم ولا تطلبوا عوراتهم ، فإنه من طلب عورة أخيه المسلم طلب الله عورته حتى يفضحه في بيته »(٤) .

والعورة : سوأة الإنسان ، وكل ما يستحيى منه من العثرات والعيوب ، وكل ما يكره المرء الاطلاع عليه ، وأصلها : من العار ، وذلك لما يلحق في ظهوره من العار أي المذمة(٥) .

---

(١) أنظر : المفردات للراغب / ٩٣

(٢) من ثم أطلق الجس مرادا به ما يلزمه وهو الطلب كما في قوله تعالى بعدها . (فوجدناها ملئت حرسا ..) أنظر حاشية الشهاب ٨/٨٠

(٣) أنظر : الدر المنثور ٦/٩٢

(٤) أنظر : المسند ٥/٢٧٩

(٥) أنظر : مفردات الراغب /٣٥٢ وحاشية زادة (٤ / ٣٧٤) والشهاب (٨/٨١) .

وقد قرىء (ولا تحسسوا) — بالحاء — والتحسس : تفحص الأشياء وطلب تعرفها بالحس فهو خاص بالإدراك الحسى ، وقيل : أن التحسس أن يتعرف الشيء لنفسه ، والتجسس : أن يكون فيه رسولا لغيره(١) .

وفى نهى الإسلام عن التجسس دلالة عظمى على كفالته الحرية الشخصية للمؤمن وحفاظه عليها شريطة ألا تنال من حرية الآخرين . مع ربط المسئولية بالجزاء فى السلوك الفردى والجماعى والحرص التام على توثيق رابطة الأخوة الإيمانية ، ودفع القواطع والموهنات عنها ليكون المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا .

وقوله تعالى : « ولا يغتب بعضكم بعضا » فهو — كما قال الفخر رضى الله عنه — إشارة إلى وجوب حفظ عرض المؤمن فى غيبته .

والغيبة : أن يذكر الإنسان غيره بالسوء فى غيبته ، فهى مأخوذة من الغيبة — بفتح الغين وسكون الياء — وقال الراغب معرفا لها : « أن يذكر الإنسان غيره بما فيه من عيب من غير أن أحوج إلى ذكره »(٢) .

وعرفها القرطبى بقوله : « وهى ذكر العيب بظهر الغيب »(٣) .

وخير بيان لمعنى الغيبة ما نطقت به السنة الشريفة ، فقد أخرج الإمام مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال :

---

(١) أنظر تفسير القرطبى ٣٣٢/١٦

(٢) أنظر تفسير البيضاوى بحاشية الشهاب ٨١/٨ والمفردات للراغب ص ٣٦٧

(٣) أنظر تفسير القرطبى ٣٣٥/١٦

« أتدرون ما الغيبة ؟؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : ذكرك أخاك بما يكره . قيل أفرأيت إن كان فيه ما أقول ؟؟ قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته . وإن لم يكن فيه فقد بهته » (١) ومعنى (بهته) — بتشديد التاء — : قلت فيه باطلا ، فالبهتان هو الباطل .

وروى عن الإمام الحسن — رضى الله عنه — أنه قال : « الغيبة : ثلاثة أوجه كلها فى كتاب الله تعالى : — الغيبة ، والإفك ، والبهتان ، فأما الغيبة : فهو أن تقول فى أخيك ماهو فيه ، وأما الإفك : فأن تقول فيه ما بلغك عنه . وأما البهتان : فأن تقول فيه ما ليس فيه » (٢) .

وقد شدد الشارع الحكيم نكيره ووعيده على الغيبة ، وندد بالمغتابين وجسد قباحة هذه المخالفة الشنعاء فى الذكر الحكيم وفى سنة النبى العظيم عليه من الله تعالى أفضل الصلوات وأتم التسليم .

فهنا — فى الآية الكريمة — يمثل الله تعالى الغيبة بأكل لحم الميت ، وحسبنا بذلك — دلالة على تحريمها وتهجين أمرها . من ثم قال الإمام ابن عباس — رضى الله عنهما — فى تفسيرها « حرم الله ان يغتاب المؤمن بشيء كما حرم الميتة » (٣) .

وهذا درس من بيت النبوة يرويه الإمام أبو داود فى سننه عن السيدة عائشة — رضى الله تعالى عنها — قالت : قلت للنبى — صلى الله عليه وسلم — « حسبك من صفية كذا و كذا — قال غير مسدد » (٤) — :

---

(١) أنظر : صحيح مسلم بشرح النووى ١٤٢/١٦ ط : المصرية

(٢) أنظر : تفسير القرطبى ٣٣٥/١٦

(٣) أنظر : الدر المنثور : ٩٤/٦

(٤) أى قال راو غير مسدد الذى روى هذه الرواية .

تعني : قصيرة ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته » !! قالت : وحكيت له أنسانا »(١) فقال :

« ما أحب أني حكيت أنسانا وأن لي كذا و كذا »(٢) .

وروى عن سيدنا أبي هريرة — رضى الله عنه — أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن من أكبر الكبائر : استطالة المرء في عرض رجل مسلم بغير حق ، ومن الكبائر : السبتان بالسبة »(٣) وكفى بهذا دليلا على أن الغيبة من أكبر الكبائر !!

وعن سيدنا أنس بن مالك - رضى الله عنه - أنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :—

« لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم ، فقلت : من هؤلاء ياجبريل ؟؟ قال : هؤلاء الذين يأكلوا لحوم الناس ويقعون في أعراضهم »(٤)

وروى البيهقي وابن مردويه وغيرهما عن السيدة عائشة — رضى الله تعالى عنها — أنها قالت : « لا يعتب بعضكم بعضاً ، فإني كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فمرت امرأة طـــويلة الذيل ، فقلت : يارسول الله : أنها لطويلة الذيل ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : الفظي ، فلفظت بضعة لحم »(٥) !!

---

(١) الظاهر : أن حكيت - هينا - بمعنى : قلدت .

(٢) أنظر : سنن أبي داود - بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد - كتاب الأدب ٤/٢٧١

(٣) أنظر نفس المصدر

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب من سننه في الموضع المذكور آنفا .

(٥) أنظر الدر المنثور ٦/٩٥

أنه التجسيد الحي المعجز لهدى القرآن العظيم، والبيان المحمدي التطبيق الرائع لحكم التنزيل الحكيم برأى العين محسوسا ومشهودا للناظرين !!

ومعجزة محمدية أخرى في هذا الصدد أخرجها الإمام أحمد - في مسنده - وغيره عن عبيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن امرأتين صامتا، وأن رجلا قال: يارسول الله: إن ههنا امرأتين قد صامتا، وأنهما قد كادتا أن تموتا من العطش، فأعرض عنه - أو سكت - ثم عاد، - وأراه قال: بالهاجرة - قال: يا نبي الله، أنهما والله قد ماتتا أو كادتا أن تموتا، قال: ادعهما، قال: فجاءتا، قال: فجيء بقدح أو عس (١)، فقال لاحداهما: قيئي، فقاءت قيحا أو دما وصديدا ولحما، حتى قاءت نصف القدح، ثم قال للأخرى: قيئي، فقاءت من قيح ودم وصديد ولحم عبيط(٢) وغيره حتى ملأت القدح ثم قال: أن هاتين صامتين عما أحل الله، وأفطرتا على ما حرم الله عز وجل عليهما، جلست أحداهما إلى الأخرى فجعلتا يأكلان لحوم الناس، (٣)

وأخرج البخاري - في الأدب - وأبو يعلى والبيهقي - في شعب الإيمان - وغيرهم عن أبي هريرة - رضي الله تعالى عنه - أن ماعزا جاء إلى رسول الله ﷺ فشهد على نفسه بالزنا فرجمه رسول الله ﷺ فسمع النبي ﷺ رجلين من أصحابه يقول أحدهما للآخر: أنظر إلى هذا الذي ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رجم رجم الكلب، فسكت عنهما، ثم سار ساعة حتى مر بجيفة حمار شائل برجله، فقال: «أين فلان وفلان؟» فقالا: نحن ذان يارسول الله، قال: «انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار»

---

(١) العس - بضم العين وتشديد السين -: القدح الضخم.

(٢) العبيط هو الخالص الطري من الدم، كما في مختار الصحاح ص ٤٠٩

(٣) أنظر: المسند: ٤٣١/٥، والدر المنثور: ٩٥/٦

فقالا : يا نبي الله ، من يأكل من هذا ؟؟ قال : « فما نلتما من عرض أخيكما آنفا أشد من أكل منه . والذي نفسي بيده — إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها »(١) .

كذلك روى الإمام أحمد — في مسنده — بسنده عن جابر بن عبد الله — رضي الله عنه أنه قال : كنا مع النبي ﷺ ، فارتفعت ريح جيفة منتنة ، فقال رسول الله ﷺ : « أتدرون ما هذه الريح ؟؟ هذه ريح الذين يغتابون المؤمنين »(٢) ! !

وهكذا تتوارد الأحاديث الشريفة والآثار الجمة — التي أتينا بجانب منها — لتهجين شأن الغيبة وتجسيد فداحة أمرها ووبال خطرها .

ولكن لنا أن نتساءل : هل تختص الغيبة بالقول فقط كما يشعره ظاهر الحديث المتقدم من قوله ﷺ : « . . . ذكرك أخاك بما يكره » ؟؟ أم هي أعم من مجرد القول ؟؟ وهل هي عامة لجميع العيوب الدينية والدنيوية والخلقية والخلقية(٣) .

أم خاصة ببعض ذلك ؟؟ وهل كل أنواع الغيبة حرام وفي جميع الحالات ؟ أم يستثنى من حكم الحرمة أنواع مطلقا أو في بعض الأحوال ؟؟

---

(١) أنظر : الحديث الشريف — بزيادات في أوله — في سنن أبي داود — كتاب الحدود — ٢٠٧/٤ — ٢٠٨

(٢) أنظر . المسند ٣٥١/٣

(٣) (الخلقية) الأولى : بكسر الخاء وسكون اللام بنسبة للخلقة ، وأما الثانية فبضم الخاء واللام : نسبة الى الخلق . بضمها أيضا .

والإجابة على التساؤل الأول : يقول الإمام الألوسى - قدس الله روحه ونور ضريحه - « والمراد بالذكر : الذكر صريحا أو كناية . ويدخل فى الأخير : الرمز والإشارة ونحوهما(١) إذا أدت مؤدى النطق ، فإن علة النهى عن الغيبة الإيذاء ، بتفهيم الغير نقصان المغتاب ، وهو(٢) موجود ، حيث أفهمت الغير ما يكرهه المغتاب بأى وجه كان من طرق الإفهام ، وهى : - بالفعل - : كأن تمشى مشية(٣) : أعظم الأنواع كما قاله الغزالى :

والإجابة على التساؤل الثانى :

يقول الإمام الغزالى - رضى الله تعالى عنه - « وإعلم أن حد الغيبة : أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه ، سواء ذكرته بنقص فى بدنه أو نسبه أو فى خلقه ، أو فى فعله ، أو فى قوله ، أو فى دينه ، أو فى دنياه ، حتى فى ثوبه وداره ودابته »(٤) .

وقد تقدم لنا من الآثار ما يدل على عموم الغيبة لما يكره فى البدن - كما فى حديث السيدة عائشة عن السيدة صفية رضى الله عنهما من وصفها بالقصر - ولما يكره فى العرض - كما فى حديث « لما عرج بى مررت

---

(١) يفيد : ادخاله الرمز والإشارة ونحوهما فى الغيبة الكنائية : دخول الافعال فيها مع الاقوال .

(٢) مرجع الضمير (هو) : التفهيم المذكور قبله .

(٣) أى : الغيبة - بالفعل - كمشيك مشى المغتاب لتصوير عيبه فى مشيه .

(٤) أنظر : احياء علوم الدين ١٤٣/٣ ط / التجارية .

يقوم .. » الخ - ولما يكره فى الثوب - كما فى الحديث الذى وصفت فيه السيدة عائشة رضى الله عنها امرأة بأنها « طويلة الذيل ... » - ولا ريب أن أشد أنواع الغيبة : غيبة المؤمن فى دينه وعرضه وقد قال ﷺ « كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه »(١) .

ثم تأتى الإجابة عن التساؤل الأخير :

فنجد أئمة العلماء يقررون أن كل أنواع الغيبة حرام سواء ما يتعلق منها بالصفات التى تذم شرعا أم ما يتعلق بالأمور الدنيوية ، واستثنوا من عموم أحوال الغيبة المحرمة أحوالا تباح الغيبة فيها بل تجب(٢) إذا تعلق بها غرض شرعى لا يمكن التوصل إليه إلا بها وذلك لأسباب ستة رئيسية ، وهى : —

أولها : التظلم إلى الحاكم أو القاضى أو إلى من له ولاية أو قدرة على إنصاف المظلوم من الظالم فيجوز للمظلوم ذكر مساوىء من ظلمه .

وثانيها : الاستعانة على تغيير المنكر ورد العاصى إلى الصواب ، فيجوز للمستعين أن يذكر لمن يرجى عونه مساوىء المستعان عليه .

وثالثها : الاستفتاء ، فيجوز أن يقال للمفتى : ظلمنى فلان بكذا وكذا ،

---

(١) سبق تخريجه عن الإمام مسلم من حديث سيدنا أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) عبر الامام الآلوسى فى تفسيره (٢٦ / ١٦١) بالوجوب بدلا من الاباحة فقال : « وقد تجب الغيبة لغرض شرعى صحيح لا يتوصل اليه الا بها » .

وأن كان الأولى التعريض بأن يقول المستفتى للمفتى : ما قولك فى رجل ظلمه أخوه - مثلا - بكذا ..

ورابعها : تحذير المسلم من الشر . ويدخل تحت هذا الباعث وجوه نذكر منها :

(ا) جرح المجروحين من الرواة والشهود والمصنفين ، وذلك جائز بالإجماع بل قال الإمام النووى بوجوبه صونا للشريعة(١) .

(ب) نصح المستشار لمن يستشيره فى التزويج أو فى إيداع الأمانة ، فالمستشار أن يذكر ما يعرفه على قصد النصح للمستشير لا على قصد الوقيعة .

(ج) نصيحة الفقيه إذا رؤى يتردد إلى مبتدع أو فاسق ليأخذ عنه علما فللمؤمن - بل عليه - إذا رأى ذلك : نصح الفقيه ببيان حال المتردد إليه لئلا تسرى البدعة والفسق إليه .

(د) إخبار المشترى بعيب المشترى(٢) ، فإذا كنت تعرف فى الشىء المشترى عيبا أو فى العبد المشترى فسقا أو نقصا : فلك أن تذكر ذلك للمشترى ، وإن تضرر العبد أو صاحبه ، لأن المشترى أولى بمراعاة جانبه .

(هـ) ذكر عدم أهلية الوالى لمن له ولاية عليه - أى لمن ولاه - فإنه

---

(١) أنظر : شرح النووى على مسلم ١٦//١٤٢ ط المصرية .

(٢) المشترى — المذكور أولا — بكسر الراء : اسم فاعل ، والمذكور ثانيا بفتح الراء اسم مفعول

ولى شخص مستور من قبل ولى الأمر واتضحت عدم أهليته أو فسقه كان لك أن تذكر حقيقة أمره لمن ولاه لئلا يغتر به ويأمنه بحاله هذا على مصالح المسلمين .

وأما خامسها :

فالمجاهرة بالفسق أو البدعة ، فإن المجاهر بفسقه كشارب الخمر والزاني يجوز ذكره بما يجاهر به ، ولا يجوز بغيره إلا بسبب آخر غير المجاهرة فقد قال ﷺ : « من ألقى جلباب الحياء عن وجهه فلا غيبة له »(١) .

وقال الإمام الحسن — رضى الله عنه — « ثلاثة ليست لهم حرمة : صاحب الهوى ، والفاسق المعلن ، والإمام الجائر »(٢) .

وكذلك المجاهر ببدعته لا تحرم غيبته لا سيما التحذير من أتباعه .

وقد روى عن الإمام الحسن — رضى الله عنه — أنه قال : « ليس لأهل البدع غيبة »(٣) .

وأما سادسها : فالتعريف بمن لقب بلقب يعرب عن عيبه ، كالأعرج

---

(١) أخرجه ابن عدى وأبو الشيخ عن أنس بسند ضعيف وخرجه العراقى عنهما فى « المغنى عن حمل الأسفار » : بهامش الإحياء ٣-١٥٣ ط / التجارية .

(٢) أنظر تفسير القرطبى ١٦/٣٣٩ والاحياء : ٣/١٥٣

(٣) أنظر تفسير القرطبى ١٦/٣٣٩

والأعمش ونحو ذلك لضرورة التعريف من جهة ، ولأن ذلك قد أصبح صاحبه مشهورا به فلا يكرهه لو علمه (١) .

تلك هي الأسباب المبيحة للغيبة شرعا لما يتعلق بها من غرض شرعي فحسب .

أما إذا تدخل الشيطان مقنعاً ومتستراً وراء سبب من تلك الأسباب ليحمل المؤمن على غيبة أخيه لينال منه باسم الدافع الشرعي ، فأن الناقد بصير ، والمحاسب على الأعمال هو العليم الخبير الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور .

ولقد جسد التنزيل شناعة اغتياب المؤمن لأخيه على أبلغ وجه وآكده ، فقال عز من قائل :

« أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا » ؟؟ ففي هذا التعبير القرآني المعجز : تمثيل (٢) لما يصدر عن المغتاب — من حيث صدوره عنه ومن

---

(١) أنظر هذه الأسباب وأدلتها في الاحياء ٣/١٥٢ - ١٥٣ وشرح النووي على مسلم ١٦/١٤٢ وتفسير القرطبي ١٦/٣٢٩

(٢) في العبارة استعارة تمثيلية حيث شبهت هيئة المغتاب لأخيه بهيئة من يأكل لحم أخيه الميت بجامع الحرمة والاستقذار وعدم الشعور وكشف الستر والكراهة في كل من الهيئتين وقال في « المثل السائر » : كنى عن الغيبة بأكل الانسان للحم مثله لأنها ذكر المثالب وتمزيق الاعراض المماثل لأكل اللحم بعد تمزيقه في استكراه العقل والشرع له . =

حيث تعلقه بصاحبه — على أفحش وجه وأبشعه طبعاً وعقلا وشرعاً، مع إيراد مبالغات فى تقبيح الأغتياب من فنون شتى وهى : —

(أ) الأستفهام التقريرى الذى صدرت به العبارة — فهو يستعمل فى الكلام المسلم عند كل سامع — ليحمل المخاطب هنا على الاقرار بأن أحدا منا لايحب ذلك الأكل الذى هو تناول عرض المغتاب .

(ب) إسناد الفعل فى (أيحب) إلى : أحد — المتناول لكل أحد من المخاطبين — يحملهم على الاقرار بأن أحدا من الآحاد لايحب أكله ، ففيه أيضاً مبالغة فى تقبيح الغيبة .

(جـ) تعلق المحبة بما هو فى غاية الكراهة وهو أكل لحم الميت .

(د) تشبيه الاغتياب بأكل لحم الانسان ، ففيه اشارة إلى أن عرض الانسان كدمه ولحمه وهـــذا — كما قال الفخر — من باب القياس الظاهر ، وذلك : لأن عرض المرء أشرف من لحمه، فإذا لم يحسن من العاقل أكل لحوم الناس لم يحسن منه قرض عرضهم بالطريق الأولى .

(هـ) جعل المأكول لحمه أخا ، فهو أكد فى المنع : لأن العدو قد يحمله غضبه على أكل لحم عدوه بينما ذلك ممتنع فى حق صديقه فكيف بأصدق الأصدقاء وناهيك بأخيك وقد استنبط الإمام الفخر من قوله (. . أن يأكل لحم أخيه . .) دليلا على أن الاغتياب الممنوع هو اغتياب المؤمن

= كما نقل العلامة الآلوسى عن أبى زيد السهيلى أنه قال وضرب المثل لأخذ العرض بأكل اللحم لأن اللحم ستر على العظم ، والشاتم لأخيه كأنه يقشر ويكشف ماعليه وكأنه أولى بما فى المثل ، (أنظر : روح المعانى ٢٦/١٥٨)

لا الكافر لقوله (إنما المؤمنون أخوة) فلا أخوة إلا بين المؤمنين (١) .

(و) جعل الأخ المأكول لحمه ميتاً ، لأن المغتاب لا يشعر بغيبته ، ففيه دفع تعليق الحرمة على الشعور بتعليقها على القبح فى ذاته وعلى وجود التأذى والتألم متى أحس به صاحبه .

(ز) تحقيق وتقرير انتفاء محبة ذلك الصنيع بتعقيب ذكره بقول تعالى « فكرهتموه » للحمل على الاقرار بعدم محبته .

وقوله تعالى « ميتاً » منصوب على الحال من اللحم أو الأخ وقد قرأ نافع بتشديد الياء فى ميتاً .

والفاء فى قوله « فكرهتموه » : فصيحة واقعة فى جواب شرط مقدر ، ولأن جواب الشرط ماض : يقدر معه (قد) ليصح دخول الفاء عليه ، والتقدير : إذا تحققت كراهتكم لذلك فليتحقق عندكم كراهة نظيره وهو الاغتياب .

وضمير المفعول فى قوله « فكرهتموه » : عائد على الأكل أو اللحم أو الاغتياب المفهوم مما قبله ويكون المعنى : فاكرهوه كراهيتكم لذلك الأكل ، وعليه تكون جملة (فكرهتموه) خبرية لفظاً انشائية معنى ولذا : عطف عليها جملة : (واتقوا الله) وبذا لا يحتاج إلى اضمار (قد) ، ويكون التعبير عن الأمر بالماضى لافادة المبالغة فكأن الأمر قد امتثل بالفعل وصار يخبر عن امتثاله بالماضى (٢) .

---

(١) أنظر مفاتيح الغيب ٥٧٨/٧

(٢) أنظر حاشية الشهاب على البيضاوى ٨١/٨

وقوله تعالى : « واتقوا الله » معطوف على ماتقدم من الأوامر والنواهى ، أى : واجتنبوا . . ولا تجسسوا . . ولا يغتب . . . واتقوا الله إن الله تواب رحيم (١) .

وقد ختمت الآيتان الكريمتان ـ هذه وسابقتها ـ بذكر التوبة ، فقال فى الأولى « ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون » وقال ههنا « إن الله تواب رحيم »(٢) أى يقبل توبة من اتقى وما نهى عنه وتاب عما فرط منه ، ويرحم من أناب إليه ، فالتقوى ههنا بمعنى الاجتناب .

وجملة « أن الله تواب رحيم » تعليل للأمر السابق عليها .

معنى « تواب » : مبالغ فى قبول التوبة ، والمبالغة ههنا : أما باعتبار الكم ، لكثرة المتوب عليهم أو لكثرة ذنوبهم ، أى : كمية المفعول أو الفعل وأما باعتبار الكيف ، إذ يجعل ـ سبحانه ـ التائب من الذنب كمن لم يذنب أصلا (٣) .

---

(١) أنظر حاشية الشيخ زاده على البيضاوى ٣٧٥/٤

(٢) نقل الامام الألوسى عن الحافظ ابن حجر ـ عليهما الرحمة والرضوان ـ أن الآية الأولى لما بدئت بالنهى ختمت بالنفى فى : (ومن لم يتب) لتقاربهما . لكن الآية الثانية لما بدئت بالأمر ـ فى : « اجتنبوا » ـ ختمت به فى : « واتقوا الله » . ثم إن حكمه التهديد الشديد فى الأولى فقط بقوله تعالى : « ومن لم يتب . . . » : أن مافيها أفحش ، لأنه ايـذاء فى الحضرة بالسخرية أو اللمز أو النبز . بخلافه فى الآية الثانية ، لأنه أمر خفى ، فأن كلا من الظن والتجسس والغيبة يقتضى الاخفاء غالبا .

(٣) أنظر تفسير البيضاوى بحاشية الشهاب ٨١/٨

وأخيرا فإن إعجاز النظم ليشع بأضوائه الباهرة من خلال تراكيب هذه الآية الكريمة فيقول أبو حيان في خاتمة تفسيرها : ـ

« وما أحسن ماجاء التركيب في هذه الآية : ـ جاء الأمر أولا باجتناب الطريق التى لاتؤدى إلى العلم ، وهو الظن .

ثم نهى ثانياً : عن طلب تحقق ذلك الظن فيصير علماً ، بقوله : « ولا تجسسوا » .

ثم نهى ثالثاً : عن ذكر ذلك إذا علم .

فهذه أمور ثلاثة مترتبة : ظن ، فعلم بالتجسس ، فاغتياب »(١) اهـ

ثم قال تعالى شأنه : ـ

ـ (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا أن أكرمكم عند الله أتقاكم أن الله عليم خبير) ـ

• • •

ومناسبة هذه الآية الكريمة لما قبلها : أنها تبيين وتقرير وتتميم لما تقدم من حقوق الأخوة الإيمانية التى ربى الحق تبارك وتعالى بها وعليها مجتمع الإيمان على مأدبة القرآن فأما تبيانها وتقريرها لما سبقها : فأنها وضعت الأساس الشرعى للتفاضل بين البشر ألا وهو التقوى بما تتضمنه من الإيمان والعمل الصالح ، فهى لب الدين ، المصحح لتحريم المنهيات السابق بيانها ، فإن السخرية من الغير والعيب ، أن كانا بسبب التفاوت

---

(١) أنظر البحر المحيط ٨/١١٥

فى الدين فهما جائزان لأن الآيات المتضمنة لتلك المناهى إنما جاءت لتقرير حقوق المؤمن على أخيه المؤمن (١).

وأما إذا لم يكن ثمة تفاوت فى الدين فليس هناك سبب مسوغ لاقتراف تلك المناهى ، فإن الناس فيما ليس من الدين والتقوى متساوون متقاربون وشىء من ذلك لا يؤثر مع عدم التقوى (٢).

فعلم من ذلك : أن الآية الكريمة تقرر النهى عن المنهيات السابقة من منطلق أن الفيصل بين تحريم المنهيات السابقة وبين اباحتها إنما هو الدين والتقوى ، وبتوفرهما فى الأخ المؤمن يتقرر النهى عن عيبه والسخرية به واغتيابه ونحو ذلك . وأيضاً : فقد بين سبحانه فى هذه الآية أن الحكمة من خلق الناس من ذكر وأنثى هى التعارف لا التناكر فى حين أن السخرية واللمز وسائر مانهى عنه فى الآيتين السابقتين يفضى إلى التناكر . ففى تقرير فائدة الخلق من ذكر وأنثى تقرير للنهى عما نهى عنه آنفا . وقد ذكر بعض المفسرين — كالقاضى البيضاوى وابى السعود — أن قوله تعالى (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى . .) الخ : يجوز أن يكون تأكيدا للنهى السابق — فى الآيتين المتقدمتين — بتقرير الأخـــوة المانعة من الاغتياب (٣).

---

(١) صرح بذلك الإمام الفخر الرازى فى صدر تفسيره لقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لايسخر قوم من قـــوم . . . » (أنظر تفسيره : ٥٧٥/٧) وأنظر تصريحه بذلك بصدد بيان مناسبة الآية التى معنا لما قبلها فى تفسيره (٥٨٠/٧) وقرائن ذلك واضحة فى نحو قوله تعالى (ولا تلمزوا انفسكم . .) ونحوه .

(٢) أنظر مفاتيح الغيب ٥٨٠/٧

(٣) انظر تفسير ابى السعود بهامش مفاتيح الغيب ٧٥٦/٧

والذى يترجح لدينا بلا ارتياب : هو ما سبق من تأكيد النهى السابق ببيان الأصل الجامع المانع وهو التقوى بما تتضمنه من الإيمان وصالح العمل ، فهو جامع بين المؤمن وأخيه الموثق لهما برباط الأخوة الإيمانية ، وهو المانع لانتهاك حرمة المؤمن بما نهى عنه من السخرية والغيب والعيب ونحو ذلك .

أما مجرد الانتماء لأصل واحد فى النشأة الإنسانية فإنه لا يكفل الأخوة المانعة من الاغتياب ونحوه على الاطلاق وإنما يمكن أن يؤخذ من التنبيه على تساويهم فى البشرية التعليل للنهى عن احتقار بعضهم بعضاً وعن السخرية والغيبة .

وأما تتميم هذه الآية الكريمة لما تقدم: فإنها أضافت لما سبق من حقوق المؤمن على أخيه فى الإيمان حقاً ثابتاً وموصولا بسوابقه فى اطار تنظيم العلاقة بين أفراد المجتمع الإيمانى وهذا الحق هو : اجتناب التفاخر بالأحساب والأنساب، ونبذ التكاثر بالأموال وازدراء الفقراء، والرجوع فى التماس الفضل والشرف الحقيقيين إلى التقوى التى هى معقد التكريم والقرب من الله تبارك وتعالى .

وفى بيان تتميم الآية الكريمة لما قبلها وانتظامها معا يقول الشيخ زاده : (ثم أنه لما بين مكارم الأخلاق بالنسبة إلى المؤمن الحاضر أولا ، وبالنسبة إلى الغائب ثانياً : نهى عامة المكلفين عن التفاخر بالأنساب فناداهم نداء عاما فقال : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى .. » الآية يعنى أنكم متساوون فى النسب من حيث أنكم ابناء رجل واحد وامرأة واحدة وهما آدم وحواء عليهما السلام ، فلا تفاخروا بالآباء والأجداد .

وقد ورد فى سبب نزول هذه الآية الكريمة عدة روايات، منها ما رواه الواحدى والقرطبى وغيرهما عن الإمام ابن عباس — رضى الله عنهما —

أنها نزلت فى ثابت بن قيس بن شماس وقوله فى الرجل الذى لم يفسح له : (ابن فلانة) ، فقال رسول الله ﷺ : من الذاكر فلانة ؟ فقام ثابت فقال : أنا يارسول الله ، فقال أنظر فى وجوه القوم ، فنظر ، فقال : ما رأيت يا ثابت ؟ فقال : رأيت أبيض وأحمر وأسود ، قال : فإنك لاتفضلهم إلا فى الدين والتقوى ، فأنزل الله تعالى هذه الآية . (١) اهـ

كذلك روى الواحدى ـ عن مقاتل ـ والقرطبى ـ عن الإمام ابن عباس رضى الله عنهما ـ :ـ

أنه لما كان يوم فتح مكة أمر النبى ﷺ بلالا حتى علا على ظهر الكعبة فأذن فقال عتاب بن أسيد بن أبى العيص : الحمد لله الذى قبض أبى حتى لم ير هذا اليوم وقال الحارث بن هشام : أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذنا ؟ ؟

وقال سهيل بن عمرو : إن يرد الله شيئاً يغيره .

وقال أبو سفيان : إنى لا أقول شيئاً ، أخاف أن يخبر به رب السماء .

فأتى جبريل النبى ﷺ ، وأخبره بما قالوا ، فدعاهم وسألهم عما قالوا .

فأقروا ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وزجرهم عن التفاخر بالأنساب والتكاثر بالأموال والازدراء بالفقراء ، فأن المدار على التقوى ، أى : الجميع من آدم وحواء ، إنما الفضل بالتقوى (٢) .

---

(١) أنظر : أسباب النزول للواحدى ـ بتحقيق السيد صقر ـ ص ٤١٧ وانظر تفسير القرطبى ٣٤١/١٦ .

(٢) أنظر نفس المصدرين السابقين .

وكذلك روى الواحدى عن يزيد بن شجرة أنه قال : مر رسول الله ﷺ ذات يوم ببعض الأسواق بالمدينة ، وإذا غلام أسود قائم ينادى عليه : يباع فمن يزيد ؟؟ وكان الغلام يقول: من اشترانى فعلى شرط ، قيل: ما هو ؟؟ قال : لا يمنعنى من الصلوات الخمس خلف رسول الله ﷺ (١) ، فاشتراه رجل على هذا الشرط وكان يره رسول الله ﷺ عند كل مكتوبة، ففقده ذات يوم ، فقال لصاحبه : أين الغلام ؟ فقال : محموم يارسول الله ، فقال لأصحابه : قوموا بنا نعوده فقاموا معه فعادوه ، فلما كان بعد أيام قال لصاحبه : ماحال الغلام ؟ فقال يارسول الله : إن الغلام لما به (٢) ، فقام ، ودخل عليه وهو فى برحائه (٣) ، فقبض على تلك الحال فتولى رسول الله ﷺ غسله وتكفينه ودفنه ، فدخل على بعض (٤) أصحابه من ذلك أمر عظيم ، فقال المهاجرون : هجرنا ديارنا وأموالنا وأهلينا فلم ير أحد منا فى حياته ومرضه وموته ما لقى هذا الغلام ! !

وقالت الأنصار : آويناه ، ونصرناه ، وواسيناه ، بأموالنا فآثر علينا عبدا حبشياً ! !

---

(١) هذا الشرط ينم عن عميق محبته لسيدنا رسول الله ﷺ وهى لباب التقوى.

(٢) أى : يعانى لما حل به من شديد المرض ، وفى رواية : أن الغلام قورب به) اى اشرف على الموت .

(٣) أى : فى شدة جهده ومعاناته .

(٤) التعبير بالبعض هنا فى غاية الأهمية للدلالة على أن ماصدر من بعضهم من القول كان نزعة فردية إذا أخذ على ظاهره والأولى : أن يحمل قولهم - الآتى فى الرواية - على محل الغبطة لذلك الغلام المحب المحظوظ بعناية سيد الخلق ﷺ .

فأنزل الله تبارك وتعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى » يعنى أنكم بنو أب واحد وامرأة واحدة . وأراهم فضل التقوى بقوله تعالى: « إن أكرمكم عند الله أتقاكم »(١) .

وإنما وجه الخطاب — فى صدر الآية الكريمة — إلى الناس . ولم يكن لخصوص المؤمنين كسوابقه : لما أن المخاطب به ههنا — وهو بيان وحدة الأصل الإنسانى وحكمه الانتهاء إلى الأصل الواحد — يهم الإنسانية جمعاء ، فهو دعوة القرآن للجنس البشرى كله إلى التعارف والتلاقى والتواصل ونبذ معوقات ذلك من التفاخر بالأنساب والأحساب ونحوهما ليتم بذلك التعارف تحقيق أسمى مراتب الفخر والتكريم بتقوى الله تعالى .

ويمكن أن يعلل تعميم الخطاب — فى صدارة الآية الكريمة للناس : بأنها خطاب لأهل مكة إذ نقل الإمام الألوسى — عن مجمع البيان — عن الإمام ابن عباس رضى الله عنهما : أن سورة الحجرات مدنية إلا هذه الآية فإنها مكية(٢) .

كما ذكر صاحب الانقان هذه الآية الكريمة مثالا لما نزل بمكة وحكمه مدنى(٣) .

وعلى ذلك : جاء الخطاب فيها (يا أيها الناس) للتعميم للمؤمنين وغيرهم

---

(١) أنظر : أسباب النزول للواحدى ص ٤١٨ وانظر : الكشاف ٥٦٩/٣ وانظر روح المعانى ١٦٣/٢٦

(٢) أنظر : روح المعانى ١٢١/٢٦

(٣) أنظر الاتقان بتحقيق محمد أبو الفضل ٤٩/١

ويظاهر ذلك ما أخرجه الإمام السيوطي ـ رضى الله تعالى عنه ـ عن ابن مردويه عن سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، أن هذه الآية فى « الحجرات » « . . إنا خلقناكم من ذكر وأنثى » هى مكية ، وهى للعرب خاصة الموالى ، أى قبيلة لهم وأى شعاب .

وقوله : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم . قال : أتقاكم للشرك »(١) اهـ

وأما قوله تعالى : « إنا خلقناكم من ذكر وأنثى » : فالمراد به أحد معنيين :ـ

أولهما : أنكم مخلوقون من آدم وحواء عليهما السلام فكلكم فى الأصل أبناء رجل واحد وامرأة واحدة فلا يحق لبعض أن يتفاخر على بعض آخر بالنسب لأنكم فى الأصل سواء. والثانى : إنا خلقنا كل واحد منكم من أب وأم فكلكم من جنس واحد متساوون بحسب توالدكم فلا حق لكم التفاخر فى النسب مع اتحادكم فى الجنس ، فإن مجال الفخر حينئذ أمر آخر وهو التقوى والوجه الأول أحق بالاعتبار لظهور ترتب ذم التفاخر بالنسب عليه .

وللإمام الفخر فى التعبير بقوله تعالى « إنا خلقناكم » ملحظ رائع ، إذ ذكر أن قوله تعالى « خلقناكم » وكذا « جعلناكم » : إشارة إلى عدم جواز الافتخار ، لأن ذلك ليس لسعيكم ولا قدرة لكم على شيء من ذلك ، فكيف تفتخرون بما لا مدخل لكم فيه »(٢) .

---

(١) أنظر الدر المنثور ٩٨/٦

(٢) أنظر : مفاتيح الغيب ٤٨١/٧

ومما يدل على أن ورود الآية الكريمة لبيان عدم جواز الافتخار بغير التقوى : استشهاد النبي ﷺ بها في هذا الصدد :

فقد أخرج الإمام السيوطي ـ في الدر المنثور ـ عن الإمام الترمذي والبيهقي ـ وغيرهما ـ عن الإمام ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ﷺ طاف يوم الفتح على راحلته يستلم الأركان بمحجنه . فلما خرج لم يجد مناخا فنزل على أيدي الرجال فخطبهم فحمد الله وأثنى عليه وقال : —

« الحمد لله الذي أذهب عنكم عبية(١) الجاهلية وتكبرها بآبائها ، الناس رجلان : بر تقي كريم على الله ، وفاجر شقي هين على الله ، والناس بنو آدم .

وخلق الله آدم من تراب قال الله : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير) ثم قال : أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم »(٢) .

كذلك أخرج الإمام السيوطي عن ابن مردويه والبيهقي عن سيدنا جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما قال : خطبنا رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق خطبة الوداع فقال : —

« يا أيها الناس ألا أن ربكم واحد ، ألا أن أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأسود على أحمر ، ولا لأحمر

---

(١) العبية ـ بضم العين وسكون الباء وفتح الياء ـ هي النخوة والكبر والفخر .

(٢) أنظر الدر المنثور ٦/ ٩٨ وانظر سنن الترمذي : كتاب تفسير القرآن ٥/ ٣٨٩

على أسود إلا بالتقوى « إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، ألا هل بلغت ؟؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : فليبلغ الشاهد الغائب »(١) .

وقد روى القرطبي ـ فى تفسيره ـ للامام على كرم الله تعالى وجهه شعرا رائعا فى هذا المعنى وهو :

الناس من جهة التمثيل أكفاء	أبوهم آدم والأم حـواء
نفس كنفس وأرواح مشاكلة	وأعظم خلقت فيهم وأعضاء
فإن يكن لهم من أصلهم حسب	يفاخرون به فالطين والماء
ما الفضل إلا لأهل العلم إنهم	على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقدر كل امرىء ما كان يحسنه	وللرجال على الأفعال سيماء
وضد كل امرىء ما كان يجهله	والجاهلون لأهل العلم أعداء(٢)

ويؤخذ من قوله تعالى : (إنا خلقناكم من ذكر وأنثى) : أن خلق الجنين إنما يكون من ماء الرجل والمرأة وليس من ماء الرجل وحده كما ذهب من احتج بقوله تعالى :

« ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه فى قرار مكين »(٣) .

وبقوله تعالى : « ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين »(٤) ، فليس فيما احتجوا به ما يفيد انفراد أحد الأبوين ـ دون الآخر ـ بنسبة الماء

---

(١) أنظر الدر المنثور ٦/٩٨ وانظر تفسير القرطبي ١٦/٣٤٢

(٢) أنظر : تفسير القرطبي ١٦/٣٤٢

(٣) سورة المرسلات / ٢٠ — ٢١

(٤) سورة السجدة / ٨

والسلالة إليه ، بل إن الآية الكريمة - التي معنا - ناصة على خلق الجنين من الذكر والأنثى كلاهما . وتوحيد الماء في الآية الكريمة لامتزاج الماءين حتى صارا ماء واحدا بدلالة قوله تعالى : « خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب »(١) ، فالمراد منه : أصلاب الرجل وترائب النساء .

وقد صرحت السنة الشريفة - الصحيحة - بأن المرأة تمنى كما يمنى الرجل وعن ذلك يكون الشبه بين الولد وأمه .

فقد روى الإمام مسلم - بسنده - عن أم سلمة رضى الله عنها قالت : « جاءت أم سليم إلى النبي ﷺ فقالت : يا رسول الله ، إن الله لا يستحيي من الحق ، فهل على المرأة من غسل إذا احتلمت ؟ ؟ فقال رسول الله ﷺ : نعم إذا رأت الماء ، فقالت أم سلمة : يا رسول الله ، وتحتلم المرأة ؟ ؟ فقال : تربت يداك ، فبم يشبهها ولدها ؟ ؟ »(٢) .

وأما قوله سبحانه : « وجعلناكم شعوبا وقبائل .. » فهو معطوف على قوله « خلقناكم ... » متفرع عنه ، فإن الخلق هو الإيجاد من العدم - وفيه معنى التقدير - وأما الجعل : فإنه يأتى بمعنى الإحداث والإنشاء إذا تعدى لمفعول واحد كما فى قوله تعالى « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور »(٤) .

كذلك يأتى الجعل بمعنى التصيير والتضمين - إذا تعدى لمفعولين -

---

(١) سورة الطارق / ٦ — ٧

(٢) أنظر صحيح مسلم بشرح النووى : ٢٢٢/٣-٢٢٤ ط المصرية .

(٣) سورة الأنعام / ١

(٤) أنظر مفاتيح الغيب : ٧/٤

كانشاء شيء من شيء وتصيير شيء شيئاً كما هنا في الآية الكريمة[١]، إذ المعنى : خلقناكم . . . وصيرناكم شعوبا . . . فالجعل ههنا متفرع عن الخلق، لأن الخلق أصل تفرع عليه الجعل شعوبا[٢] .

وجعل الناس شعوبا ترتب عليه التعارف المفضى إلى التقوى ، وهكذا يتسلسل المعنى ويتفرع في الآية الكريمة في اتساق باهر بحيث تسلم كل عبارة بمعناها إلى الأخرى في إحكام بديع وترتيب محكم .

وبالنظرة القرآنية الموضوعية : ندرك أن الخلق ههنا ليس هو المعلل بالتعارف بل المعلل بالتعارف إنما هو جعل الناس شعوبا وقبائل ، وإنما العلة التي جعل الخلق غاية لها : هي العبادة ، لقوله تعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون »[٣] .

ولذا جاء قوله تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » بعد قوله تعالى : « إنا خلقناكم من ذكر وأنثى . . . » دليلا على خلقه للعبادة . لأنه إذا كان أتقى الناس كان أعبدهم وأخلصهم عملا ، فيكون المطلوب منه أتم في الوجود فيكون أعز وأكرم »[٤] .

والشعوب : جمع شعب وهو : الجمع العظيم المنتسبون إلى أصل واحد[٥].

---

(١) أنظر مفاتيح الغيب ٤/٧ :

(٢) أنظر مفاتيح الغيب ، ٧/٥٨١

(٣) سورة الذاريات / ٥٦

(٤) أنظر : مفاتيح الغيب ٧/٦٦٠

(٥) أنظر : تفسير البيضاوي بحاشية الشهاب ٨/٨٢

وذكر القرطبي : أن الشعوب رؤوس القبائل . مثل ربيعة ومضر ، والأوس والخزرج واحدها شعب ـ بفتح الشين ـ سموا به : لتشعبهم واجتماعهم ، كشعب أغصان الشجرة .

والشعب من الإضداد ، فيقال : شعبته إذا جمعته ، وشعبته إذا فرقته . ومنه سميت المنية شعوبا ، لأنها مفرقة(١) .

ونقل عن الجوهري أنه قال : الشعب : ما تشعب من قبائل العرب والعجم(٢) .

وذكر الشهاب ـ تعليقا على قول البيضاوي : وقيل : الشعوب بطون العجم والقبائل بطون العرب ـ إن لفظ الشعوب قد خص ببطون العجم لكثرة إنشعابهم وتفرق أنسابهم ، ولغلبة « الشعوب » على العجم قيل لمن يفضل العجم على العرب (شعوبي) ـ بالضم ـ فنسب إلى الجمع كأنصاري اهـ(٣) .

كذلك ذكر البيضاوي : أن الشعب يجمع القبائل ، والقبيلة : تجمع العمائر . والعمارة : تجمع البطون ، والبطن : تجمع الأفخاذ ، والفخذ : يجمع الفصائل .

وقد مثل لذلك فقال : فخزيمة : شعب ، وكنانة : قبيلة ، وقريش :

---

(١) أنظر : تفسير القرطبي ٣٤٤-٣٤٣/١٦

(٢) نفس المصدر .

(٣) أنظر حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ٨٢/٨

عمارة ، وقصى : بطن ، وهاشم : فخذ ، وعباس : فصيلة ا هـ(١) وقد نقل القرطبي أقوالا أخرى فى مدلول الشعب(٢) .

وأما قوله تعالى : (لتعارفوا . .) : فهو علة للجعل السابق — كما ذكرنا — والمعنى : جعلناكم شعوبا وقبائل ليعرف بعضكم بعضا فتصلوا الأرحام وتبينوا الأنساب والتوارث لا لتفاخروا(٣) بالآباء والأجداد والقبائل فإن الفخر بالتقوى .

وقد قرأ الأعمش وبعضهم : (لتتعارفوا) بتاءين على الأصل .

كما قرأ ابن كثير — فى رواية عنه — (لتعارفوا) بادغام التاء فى التاء .

وقرأ عاصم — فى رواية أبان عنه — (لتعرفوا) بكسر الراء ، مضارع عرف(٤) .

---

(١) أنظر تفسير البيضاوى بحاشية الشهاب : ٨٢/٨

(٢) منها ما روى عن الإمام ابن عباس — رضى الله عنهما — من أن الشعوب هم الموالى وغير ذلك (أنظر : تفسير القرطبى ٣٤٤/١٦)

(٣) ذكر الشهاب فى حاشيته على البيضاوى (٨٣/٨) أن حصر معنى التعارف (فى معرفة البعض للبعض وما يفضى إليه من صلة الأرحام ونحوه) دون التفاخر بالأنساب : هذا الحصر مأخوذ من التخصيص بالذكر والسكوت فى معرض البيان وأما ما سبق المعنى لأجله فيؤيده ما رواه الترمذى عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم فإن صلة الرحم محبة فى الأهل مثراة فى المال منسأة فى الأثر » — أى مزيدة فى العمر — سنن الترمذى ٣٥١/٤ .

(٤) أنظر القراءات فى حاشية الشهاب على البيضاوى (٨٢/٨) وانظر روح المعانى ١٦٢/٢٦

وعلى القراءة الأخيرة : يكون المفعول محذوفا ، والتقدير : لتعرفوا ما أنتم محتاجون إليه كما نقل عن ابن جنى .

وذكر الإمام الآلوسى - قدس الله سره - أنه أختير فى المفعول المقدر : - قرابة بعضكم من بعض .

وعلى ذلك : يكون قوله تعالى : (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) استئنافا تعليليا للنهى عن التفاخر بالأنساب - المستفاد من الكلام السابق - كأنه قيل : إن الأكرم والأرفع منزلة عند الله تعالى فى الدنيا والآخرة إنما هو الأتقى ، فتفاخروا بالتقوى(١) .

وذكر أبو حيان فى تفسيره - البحر - أن الإمام ابن عباس - رضى الله تعالى عنهما - قرأ « . . . أن أكرمكم . . . » بفتح همزة (أن) ، وكان قد قرأ به « لتعرفوا . . . » - مضارع (عرف) - فاحتمل أن تكون جملة (أن أكرمكم عند الله أتقاكم) مفعولا لـ : (تعرفوا) ، وهو دون شك يعطى مفادا عظيما رائعا ، وقد علق أبو حيان عليه بقوله : « وهو أجود من حيث المعنى » بيد أن الذى يظهر المعنى على هذا الوجه : أن تكون اللام فى « لتعرفوا » لام الأمر ، أما إذا جعلت (لام كى) - أى تعليلية - فإن المعنى - عند أبى حيان - لا يظهر ، لخفاء الارتباط السببى بين جعلهم شعوبا وقبائل وبين معرفتهم أن الأكرم هو الأتقى(٢) .

---

(١) نفس المصدر الأخير .

(٢) أنظر : البحر المحيط لأبى حيان الأندلسى ١١٦/٨

بيد أنه لا يصعب — فى تصورنا — استظهار هذا الارتباط، لاسيما بضم الخلق من ذكر وأنثى — بما يقتضيه من تحقيق العبادة لله تعالى — إلى جعلهم شعوبا وقبـــائل — بما تقتضيه مزية الاجتماع والانتماء إلى أصل واحد — لاشك أن ذينك العنصرين موصـــلان إلى ادراك مناط القرب والتكريم عند الله تعالى .

كذلك : يتفرع عن القراءة بفتح همزة (أن) احتمال آخر ، وهو مبنى على حذف لام التعليل — قبل (أن) — كأنه قيل : لم لاتتفاخروا بالأنساب ؟ فقيل : لأن أكرمكم عند الله أتقاكم ، لا أنسبكم ، فإن مداركمال النفوس وتفاوت الأشخاص إنما هو التقوى (١) .

وللإمام الفخر — قدس الله سره — استنباط إشارى رائع فى قوله تعالى (. . لتعارفوا) حيث قال فى تفسيره : « قوله تعالى « لتعارفوا » إشارة قياس خفى وبيانه :— هو أنه تعالى قال: إنكم جعلتم قبائل لتعارفوا ، وأنتم إذا كنتم أقرب إلى شريف تفتخرون به : فخلقكم لتعرفوا ربكم ، فإذا كنتم أقرب منه ، وهو أشرف الموجودات : كان الأحق بالافتخار هناك من الكل : الافتخار بذلك »(٢) .

لقد وضع الحق سبحانه بقوله جل شأنه :«إن أكرمكم عند الله أتقاكم» المقياس القرآنى والمعيار الحقيق للتفاضل بين الناس عنده عز وجل : ليعلم كل : أن فضله وقربه من ربه وأكرميته عند الله تعالى على قدر تقواه ، فالتقوى هى النسب الحقيق للمولى عز وجل . ومصداق ذلك ما رواه

---

(١) أنظر : تفسير القرطبى ٣٤٥/١٦ وانظر روح المعانى ١٦٣/٢٦

(٢) أنظر : مفاتيح الغيب ٥٨٢/٧

الحاكم - وصححه - وابن مردويه والبيهقى عن أبى هريرة - رضى الله تعالى عنه أن النبى ﷺ قال :-

« إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : أمرتكم فضيعتم ماعهدت إليكم فيه ، ورفعتم(١) أنسابكم ، فاليوم أرفع نسبى وأضع أنسابكم ، أين المتقون ، أين المتقون ؟؟ إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

كذلك روى الطبرانى — فى الأوسط — عن أنس إن النبى ﷺ قال « آل محمد كل تقى »(٢).

وقد روى البخارى - عن أبى هريرة - رضى الله تعالى عنه - قال :- سئل رسول الله ﷺ : أى الناس أكرم ؟؟ قال : أكرمهم عند الله أتقاهم(٣) قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : فأكرم الناس يوسف نبى الله بن نبى الله بن نبى الله بن خليل الله . قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : فمن معادن العرب تسألونى ؟ قالوا نعم قال : فخياركم فى الجاهلية خياركم فى الاسلام إذا فقهوا »(٤).

وحسبنا دلالة على شرف المتقين أن الله تعالى قصر ولايته عليهم فى

---

(١) اللفظ فى المستدرك (٢/٤٦٤) : (ورفعت) ، والمثبت هنا — وهو الأوفق للسياق - من رواية الإمام السيوطى التى أخرجها فى الدر المنثور ٦/٩٨ .

(٢) أنظر : كنز العمال ٣/٨٩

(٣) ومن نافلة القول : أن أتقى العالمين جميعاً هو سيدنا رسول الله ﷺ فهو أكرمهم (على الاطلاق) عند الله تعالى . فليتنبه إلى ذلك فى فهم الحديث الشريف .

(٤) أنظر : صحيح البخارى : كتاب التفسير ٣/٩٧ ط / محمد عبد اللطيف حجازى

التنزيل فقال عز من قائل : « . . . إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون »(١) :

وفى فضل المتقين أيضاً يقول سيد الخلق ﷺ : « المتقون سادة العلماء والفقهاء قادة، أخذ عليهم أداء مواثيق العلم : والجلوس إليهم بركة، والنظر إليهم نور »(٢) !!

وحقيقة التقوى : قد تقدم الحديث عنها فى تفسير صدر السورة الكريمة ، بيد أن أقوال العلماء فى ماهيتها - لدى مواضع ذكرها فى التنزيل الحكيم - جد عديدة ، وما منها من قول الاوله ضياء مشع من وهج الحقيقـــة .

ففى هذا الموضع من تفسير القرطبى يقول : « والتقوى : معناها مراعاة حدود الله تعالى أمراً ونهياً ، والاتصاف بما أمرك أن تتصف به والتنزه عما نهاك عنه »(٣) .

أما الإمام الفخر - عليه رضوان الله تعالى - فيقول فى هذا الموطن من تفسيره متسائلا ومجيبا ماحد التقوى ؟ ومن الأتقى ؟؟

تقول : أدنى مراتب التقوى : أن يجتنب العبد المناهى ، ويأتى بالأوامر

---

(١) سورة الأنفال / ٣٤

(٢) خرجه صاحب كنز العمال (٩٣/٣) عن الخطيب عن السيدة عائشة رضى الله عنها وجاء تخريجه - فى الهامش - ومن المحقق عن الطبرانى عن ابن مسعود .

(٣) أنظر : تفسير القرطبى ٣٤٥/١٦

ولا يقر ولا يأمن إلا عندهما ، فإن اتفق أن ارتكب منهيا لا يأمن ولا يتكل له ، بل يتبعه بحسنة ، ويظهر عليه ندامة وتوبة .

ومتى ارتكب منهيا وما تاب في الحال ، واتكل على المهلة في الأجل ، ومنعه عن التذكر طول الأمل . فليس بمتق .

أما الأتقى : فهو الذي يأتي بما أمر به ، ويترك ما نهى عنه ، وهو مع ذلك خاش ربه ، لا يشتغل بغير الله ، فينور الله قلبه ، فإن التفت لحظة إلى نفسه أو ولده جعل ذلك ذنبه ! !

وللأولين : النجاة ، لقوله تعالى : « ثم ننجي الذين اتقوا . . »(١) .

وللآخرين : السوق إلى الجنة ، لقوله تعالى : « أكرمكم عند الله أتقاكم »(٢) .

فبين من أعطاه السلطان بستانا وأسكنه فيه ، وبين من استخلصه لنفسه يستفيد — كل يوم — بسبب القرب منه بساتين وضياعا ، بون عظيم»(٣) اهـ

فالتقوى إذا : مناط الفوز والفلاح والرجحان والتكريم عند الله .

---

(١) سورة مريم / ٧٢

(٢) هذا دليل بطريق اللزوم ، لأن الأكرمية عند الله تعالى تستلزم التنعم بالجنة ومن الأدلة الصريحة لذلك : قوله تعالى : « وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا » الزمر / ٧٣

(٣) أنظر مفاتيح الغيب ٥٨٢/٧

تبارك وتعالى ومن ثم عول عليها الإمام مالك — رضى الله تعالى عنه — فى الكفاءة فى النكاح وجعلها فوق الحسب والنسب ، فقد روى عنه أنه يجيز أن يتزوج المولى — أى العبد — العربية واحتج لذلك بهذه الآية الكريمة(١) .

كما أورد القرطبى — بصدد الاحتجاج لمراعاة الكفاءة فى الدين والاكتفاء بها — ما رواه الدارقطنى - من حيث الزهرى عن عروة عن السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها وعنهم - أن أبا هند - مولى بنى بياضة - كان حجاما ، فحجم النبى ﷺ ، فقال النبى ﷺ « من سره أن ينظر إلى من صور الله الإيمان فى قلبه : فلينظر إلى أبى هند » وقال رسول الله ﷺ : « أنكحوه وانكحوا إليه »(٢) .

ثم نقل عن الإمام القشيرى أنه قال : « وقد يعتبر النسب فى الكفاءة فى النكاح وهو : الاتصال بشجرة النبوة ، أو بالعلماء الذين هم ورثة الأنبياء، أو المرموقين فى الزهد والصلاح ، والتقى المؤمن أفضل من الفاجر النسيب ، فإن كانا تقيين فحينئذ يقدم النسيب منهما . »(٣).

أجل . إن اتصال النسب بسيد الخلق ﷺ شرف لا يعادله شرف وحرى بمن حظى به أن يقرنه بالتقوى لتكتمل فيه أهلية النسب وأهلية الصلاح ، إذ الحسنة فى نفسها حسنة ، وهى من بيت النبوة أحسن ، كما أن السيئة فى ذاتها سيئة وهى من بيت النبوة - إن صدرت - أسوأ ، حماه

(١) أنظر تفسير القرطبى ٣٤٦/١٦

(٢) أنظر تفسير القرطبى ٣٤٧/١٦

(٣) نفس المصدر ٣٤٨/١٦

الله وزاده تشريفا وتعظيما . على أنه من المقطوع به . أن الانتساب إلى حضرته ﷺ عظيم النفع وله مع صلة المصاهرة خصوصية عدم الانقطاع فى الآخرة ، لما رواه الإمام أحمد والحاكم عن المسور بن مخرمة أن رسول الله ﷺ قال . « فاطمة بضعة(١) منى يقبضنى ما قبضها ويبسطنى ما بسطها ، وأن الأنساب يوم القيامة تنقطع غير نسبى وسببى وصهرى . . »(٢) .

ولا يعارض ذلك ما ورد من حثه ﷺ لأهل بيته على خشية الله تعالى واتقائه سبحانه ، وأنه ﷺ لا يغنى عنهم من الله شيئا ، فإن هذا ورد حرصا منه ﷺ على إرشادهم وتحذيرا لهم من أن يتكلوا على النسب فتقصر خطاهم عن اللحوق بالسابقين من المتقين ، وليجتمع لهم الشرفان . شرف التقوى وشرف النسب ، ورعاية لمقام التخويف خاطبهم صلوات الله وسلامه عليه بقوله . لا أغنى عنكم من الله شيئا ، والمراد . لا أغنى عنكم شيئا بمجرد نفسى من غير ما يكرمنى الله تعالى به من نحو شفاعة فيكم ومغفرة منه تعالى لكم ، وهو ـ عليه أفضل الصلاة وأتم السلام ـ لا يملك لأحد نفعا ولا ضرا إلا بتمليك الله تعالى والله سبحانه يملكه نفع أمته ـ لا سيما قرابته ـ إذ الأقربون أولى بالمعروف ! !(٣) .

جعلنا الله تعالى من ذوى قرابته ﷺ ظاهرا وباطنا الناالين من راحته سعادة الدارين بجاهه الكريم .

---

(١) فى المسند : (مضغة) بدلا من بضعة ، والمثبت هنا هو ما فى رواية الحاكم فى مستدركه ٣/١٥٨

(٢) أنظر المسند ٤/٣٢٣ ، ٣٣٢

(٣) أنظر . روح المعانى للإمام الالوسى ٢٦/١٦٤ — ١٦٥

ثم ختم سبحانه هذه الآية الكريمة بتأكيد علمه تعالى وإطلاعه على حقائق أحوال عباده فقال جل شأنه : « إن الله عليم خبير » ، أى عليم بكم وبأعمالكم ، وخبير ببواطن أحوالكم[1] .

ومناسبة العلم - ههنا - للتعارف جد قوية ، كما أن مناسبة وصف « الخبير » لأمر التقوى جلية .

وقد قال العارفون بالله تعالى : « من عرف أنه عليم بحاله صبر على بليته وشكر على عطيته ، واعتذر عن قبيح خطيئته »[2] .

وكذلك قالوا : « من عرف أنه خبير كان بزمام التقوى مشدودا وعن طريق المنى مصدودا »[3] .

ثم قال تعالى شأنه وتبارك اسمه :

(قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم وإن تطيعوا الله ورسوله لايلتكم من أعمالكم شيئا إن الله غفور رحيم) .

* * *

---

(١) أنظر تفسير أبى السعود بهامش مفاتيح الغيب ٧/٧٥٧

(٢) أنظر : لوامع البينات فى شرح أسماء الله تعالى والصفات للإمام الفخر الرازى ص ٢٣٤ .

(٣) نفس المصدر ص ٣٤٩

ومناسبة هذه الآية الكريمة لسابقتها :

هى أنه تعالى لما بين بقوله سبحانه : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » أن مناط الفضيلة والشرف والتكريم عند الله تعالى هو التقوى ، وكان أصل التقوى هو الإيمان واتقاء الشرك . بين سبحانه فى هـــذه الآية اللاحقة أن الإيمان ليس بمجرد النطق باللسان أو الامتثال الظاهرى ، وإنما أصل الإيمان هو العقد بالجنان - أى بالقلب - .

فقال تعالى : « قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا . . . » فإن الإيمان هو التصديق - المركب من القبول والإذعان-(١) بالنبى صلى الله عليه وسلم وبما جاء به عن ربه مما علم من الدين بالضرورة ، ولم يحصل لكم ذلك أيها الأعراب فقولوا أسلمنا ، أى استسلمنا وانقدنا ظاهراً(٢) .

---

(١) فالتصديق مركب من أمرين هما : القبول — وهو الرضا — والإذعان — وهو الانقياد والخضوع — وعبارة الشيخ زادة فى حاشيته (٤ / ٣٧٥) : « فإن الإيمان هو التصديق بالجنان مع الثقة بحقيقة الصدق به وبصدق من أخبر » ا هـ .

(٢) أنظر مفاتيح الغيب ٥٨٣/٧ وانظر حاشية الشيخ زاده على البيضاوى ٣٧٥/٤ .

وأما سبب نزول هذه الآية الكريمة :

فقد روى الإمام الواحدى ـ فى « أسباب النزول » : ـ أنها نزلت فى أعراب من بنى أسد بن خزيمة : قدموا على رسول الله ﷺ المدينة فى سنة جدبة ، فأظهروا الشهادتين ولم يكونوا مؤمنين فى السر ، وأفسدوا طرق المدينة بالعذرات ، وأغلوا أسعارها ، وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ : أتيناك بالأثقال والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان ، فأعطنا من الصدقة ، وجعلوا يمنون عليه ، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية »(١)

ونقل القرطبى عن السدى : أنها نزلت فى الأعراب المذكورين فى سورة الفتح : « أعراب مزينة وجهينة ، وأسلم وغفار ، والديل وأشجع ، قالوا : آمنا ليأمنوا على أنفسهم وأموالهم ، فلما استنفروا إلى المدينة تخلفوا فنزلت(٢) .

وعلى كل : فإن المراد من الأعراب فى الآية الكريمة : بعض منهم لا عمومهم لقـــوله تعالى : « ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ... »(٣) .

وإنما أنث الفعل (قالت) مع أن الفاعل مذكر : لشيوع اعتبار التأنيث فى الجموع . وكذلك للدلالة ـــ من باب الإشارة ـــ على قلة عقولهم . عكس ما روعى فى قوله تعالى : « وقال نسوة فى المدينة ... »(٤)

---

(١) أنظر : أسباب النزول : ص ٤١٩ وتفسير القرطبى ٣٤٨/١٦ ، والدر المنثور ١٠٠/٦

(٢) أنظر تفسير القرطبى ٣٤٨/١٦ وأنظر روح المعانى ١٦٧/٢٦

(٣) سورة التوبة /٩٩ (٤) سورة يوسف / ٣٠

وقوله تعالى : « قل لم تؤمنوا » إكذاب(١) لهم فى دعواهم الإيمان إذ هو تصديق بالجنان مع الثقة وطمأنينة القلب ، وهذا لم يتحقق للأعراب وإلا لما منوا على الرسول ﷺ كما جاء فى آخر السورة الكريمة .

وفى قوله تعالى : « قل لم تؤمنوا » اظهار معجزة للنبى ﷺ حيث أطلعه الله تعالى على الغيب المضمر فى قلوبهم وجوز — سبحانه — لرسوله ﷺ ما منع غيره منه بقوله تعالى : « ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمناً » (٢) لعدم علم الغير بما فى القلب فالغير مأمور بالحكم بالظاهر واجتناب الظن ، لكن التجويز فى حقه ﷺ لما تحقق به من اليقين (٣)

كذلك أمره الله تعالى أن يخاطبهم بحقيقة أمرهم بقوله تعالى : « ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم » وذلك : لأن الإسلام — بأصل مدلوله — هو الانقياد والدخول فى السلم — وهو ضد الحرب — وما كان من هؤلاء الأعراب من اظهار الشهادتين وترك المحاربة مشعر به .

وللأساطين المفسرين نظرة تحليلية عميقة فى قوله تعالى : « قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا » فقد ارتأوا أن فى هذا التعبير عدولا عن مقتضى الظاهر وهو المطابقة والتقابل فى الكلام إذ المطابقة والمقابلة تقتضيان : أن يكون المنفى والمثبت على وتيرة واحدة وذلك هنا : إما بأن يقابل نفى الإيمان بإثبات الإسلام فيقال : لم تؤمنوا ولكن أسلمتم : وإما بأن يذكر القول

(١) التعبير بالاكذاب ، هنا ، أوقع من التعبير بالتكذيب ، إذ يقال فى اللغة : أكذبته ، أى وجدته كاذبا ، وكذبته نسبته إلى الكذب صادقاً كان أو كاذباً (أنظر المفردات ص ٤٢٨)

(٢) سورة النساء /٩٤ (٣) أنظر مفاتيح الغيب ٧/٥٨٤

فيهما معا مع التقابل فى النفى (١) والاثبات بأن يقال : لاتقولوا آمنا ولكن قولوا أسلمنا لكنه عدل - ههنا - عن المطابقة اللفظية واكتفى بالمطابقة المعنوية لاحراز جملة من المقاصد والمرامى التى سيق لها الكلام العزيز المعجز ، وتتمثل فيما يلى :-

أما أولها : فانه عبر بقوله « قل لم تؤمنوا » لافادة تكذيبهم فى دعواهم الإيمان أولا ، وتوبيخهم على منهم بإيمانهم بأنهم قد خلوا منه أصلا ، ولو صدقوا فى دعواهم الإيمان لكان المن - فى الحقيقة - لله عليهم لا منهم عليه أو على رسوله ﷺ .

وإنما لم يصرح - فى تكذيبهم - بلفظ التكذيب - فلم يقل : كذبتم ، للعدول عن المواجهة بالتكذيب منه ﷺ لهم - حيث يتمثل الأدب المحمدى الشريف فى الدعوة إلى الله تعالى ليصير ملكة لأتباعه فى منهج الدعوة — فعدل عن صريح التكذيب إلى ما هو أشد منه بالتعريض والتلميح فى قوله تعالى فى حق غيرهم فى الآية التالية : « أولئك هم الصادقون » إذ بقصر الصدق على مقابليهم : انحصر الكذب فيهم !!

وثانيها : أنه تعالى آثر التعبير بقوله « لم تؤمنوا » على التعبير بـ : « لاتقولوا آمنا » : احترازا من النهى عن القول بالإيمان لعدم مناسبته لمقام الرسول الكريم ﷺ المبعوث ، داعيا إلى الإيمان .

ثم إن نفى الإيمان عنهم بقوله : « لم تؤمنوا » أظهر فى تكذيب دعواهم من نفيه بنحو : لاتقولوا آمنا ، لما أن نفى القول لا يستلزم نفى أصل الإيمان.

وثالثها : إنه تعالى آثر التعبير بقوله (ولكن قولوا أسلمنا) على

---

(١) الذى يقابل الاثبات ههنا هو النهى ، وقد عبر عنه بالنفى لأنه فى معناه

التعبير ب: « ولكن أسلمتم » احترازا من افادة الجزم باسلامهم والاعتداد به مع فقد انه لأساس اعتباره شرعا وهو التصديق القلبي .

كما أن فى مقابلة تعالى « قل لم تؤمنوا » بقوله سبحانه : « ولكن قولوا أسلمنا » مفادا رائعا أثبته الإمام الآلوسى — عليه رضوان الله — إذ قال : « كأنه قيل : قل لم تؤمنوا فلا تكذبوا ، ولكن قولوا أسلمنا لتفوقوا بالصدق [1] إن فاتكم الإيمان والصديق . ولو قيل : ولكن أسلمتم لم يؤد هذا المعنى » [2] .

ثم يذكر العلامة الشهاب أن فى الكلام العزيز لفا ونشرا لطرق التقابل ، وقد روعيت فيه المطابقة المعنوية مع رعاية الأدب والعدول عن تكذيبهم الصريح المورث للعناد المعوق للدعوة إلى الله تعالى والمأمور به ممارستها بالحكمة والموعظة الحسنة [3] .

وذهب بعض المفسرين إلى أن فى الآية الكريمة مايعرف فى البلاغة ب: « الاحتباك » وهو : أن يحذف من كل من الجملتين ما أثبت فى الأخرى ، وأصل العبارة على هذا : لم تؤمنوا فلا تقولوا آمنا ، ولكن أسلمتم فقولوا : أسلمنا .

بيد أن الراجح هو ما قدمناه أولا من العدول عن مقتضى الظاهر لأنه

---

(١) المراد بالصدق ههنا : صدقهم فى تحققهم بالإسلام العرفى — الذى هو الامتثال الظاهرى لأوامر الشرع ونواهيه ، لاصدقهم فى التحقيق بالاسلام المعتبر شرعا .

(٢) أنظر . روح المعانى ٢٦ / ١٦٨

(٣) أنظر : حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى ٨٢/٨

الأبلغ من جهة ولسلامته من الحذف دون قرينة من جهة أخرى (١).

وأما قوله تعالى : ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم ، فهو جملة حالية من ضمير الفاعل فى « قولوا » وهذه الجملة تفيد أمرين زائدين عما أفادته جملة « لم تؤمنوا ».

أولها : توقيت القول المأمور به فى : « قولوا أسلمنا »، وتقييد الأمر به بحال عدم دخول الإيمان فى قلوبهم ، فيكون المعنى : قولوا أسلمنا مادمتم على هذه الصفة .

وثانيهما : الدلالة على توقع دخول الإيمان فى قلوبهم بعد ، وهذا مستفاد من التعبير بـ « لما » فإنها تفيد النفى الماضى المستمر إلى زمن الحال كما تفيد أن منفيها متوقع الثبوت (٢) عند جمهرة العلماء خلافا لأبى حيان الذى قصر دلالتها على نفى ما كان متصلا بزمن الأخبار (٣).

ومن ثم : كان التعبير بـ « لما » اعجازا قرآنيا فى الإخبار بالمغيبات حيث أفاد أن حصول الايمان فى قلوبهم متوقع سيحصل عند اطلاعهم على محاسن الاسلام ، ولذا يقول الامام أبو السعود فى تفسيره : « وما فى « لما » من معنى التوقع مشعر بأن هؤلاء قد آمنوا فيما بعد (٤) .

---

(١) أنظر : حاشية الشهاب ٨/٨٢ وروح المعنى ٢٦/١٦٨

(٢) هذه الدلالة محققة سواء جعلت الجملة حالية — كما رجحه الشهاب — أم مستأنفة — كما صححه الآلوسى — أما افادة توقيت القول المأمور به فى « قولوا أسلمنا » فإنها لاتتأتى إلا على جعل الجملة حالية .

(٣) أنظر البحر المحيط : ٨/١١٧

(٤) انظر تفسير أبى السعود بهامش مفاتيح الغيب ٧/٧٥٧

وبإفادة هذه الجملة لكل من: توقيت القول المأمور به فى «قولوا أسلمنا»، والدلالة على توقع دخول الإيمان فى قلوبهم : لا تطرأ شبهة : تكرارها لجملة : «لم تؤمنوا». وفى ضوء معالجة هذه الآية الكريمة لقضية الإيمان والاسلام وتحديد العلاقة بينهما : برزت الآراء والاتجاهات العقدية المختلفة فى تحديد الحقيقة الشرعية لكل من الإيمان والاسلام وبيان علاقة كل منهما بالآخر. وليس المقام هنا لاستعراض تلك الآراء والترجيح بينها وإنما المقام لتحديد العلاقة بينهما فى ضوء مفاد الآية الكريمة من أقرب طريق فذهب المحققين من العلماء كالامام الأشعرى وأكثر الأئمة : أن الإيمان هو تصديق النبى ﷺ بالقلب فى كل ما علم مجيئه به من الدين بالضرورة تصديقاً جازما مطلقا (١).

كذلك يطلق الاسلام فى الشرع على : الانقياد لله بقبول رسوله ﷺ بالتلفظ بكلمتى الشهادة والاتيان بالواجبات والانتهاء عن المنكرات، وذلك كما دل عليه جواب النبى ﷺ لسيدنا جبريل — عليه السلام — حين سأله عن الاسلام والايمان والاحسان، فيما رواه البخارى وغيره (٢).

فبتحديد المدلول الشرعى لمسمى الايمان والاسلام : نستوضح أن العلاقة بينهما هى العموم والخصوص الوجهى.

فيجتمعان فيمن صدق بقلبه ونطق بلسانه وامتثل لشرائع الاسلام بظاهره كسيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه.

---

(١) انظر : عمدة القارى شرح صحيح البخارى للامام بدر الدين العينى ١/١١٥ — ١١٦

(٢) انظر : صحيح البخارى ١/١٢ ط محمد عبد اللطيف حجازى.

وينفرد الايمان : فيمن صدق بقلبه ولم ينطق بلسانه ، كما إذا اعتقد الكافر جميع ما يجب الاعتقاد به اعتقادا جازما ومات قبل الاقرار والعمل .

وينفرد الاسلام : فيمن امتثل بظاهره دون أن يصدق بقلبه تصديقا جازما كما هو حال الاعراب الذين نزلت فيهم هذه الآية الكريمة حيث نفى عنهم الايمان وأثبت لهم الاسلام (١) .

هذا من جهة التحديد العرفى الشرعى لمسمى كل من الايمان والاسلام .

بيد أن الحقيقة الشرعية : أن كلا من الايمان والاسلام — بمدلوله فى الشرع — جزء من حقيقة واحدة هى الدين ، ومن ثم : يقول الامام البغوى — فى شرح حديث سيدنا جبريل المشار اليه آنفا — « جعل النبى ﷺ الاسلام اسما لما ظهر من الأعمال وجعل الإيمان اسما لما بطن من الإعتقاد ، وليس ذلك لأن الأعمال ليست من الإيمان والتصديق بالقلب ليس من الإسلام ، بل ذلك تفصيل لجملة هى كلها شىء واحد وجماعها : الدين ، ولذلك قال ﷺ : ذاك جبريل أتاكم يعلمكم دينكم (٢) أهـ .

أما من ذهب إلى أن الإسلام أعم من الايمان — فى الشرع — كالحافظ ابن كثير فى تفسيره (٣) : —

فقد نظر إلى شمول الانقياد — الذى هو معنى الاسلام فى اللغة —

---

(١) انظر : عمدة القارى شرح صحيح البخارى ١/١٢٣ .

(٢) انظر : شرح الامام النووى على صحيح الامام مسلم ١/١٤٥ .

(٣) انظر : تفسير ابن كثير : ٧/٣٦٨ .

للانقياد القلبي الذي هو التصديق ، فقال ـ لذلك ـ إن الإيمان أخص من الاسلام (١) .

بيد أن العرف الشرعي ـ في اصطلاح العلماء ـ قد خصص الانقياد بكونه ظاهريا بدليل اثبات الاسلام لهؤلاء الأعراب الذين نزلت فيهم هذه الآية الكريمة مع أنه قد نفى التصديق عنهم بقوله تعالى « قل لم تؤمنوا » فالنص ههنا شاهد لمذهب الامام الاشعري ومن معه .

وقد حاول ابن كثير أن يجعل من الآية الكريمة دليلا لمذهبه — في عموم الاسلام للايمان فذهب إلى أن هؤلاء الأعراب — الذين نزلت فيهم الآية — لم يكونوا منافقين وأنهم قوم ادعوا لأنفسهم مقام الايمان ولم يحصل لهم بعد فأدبوا وأعلموا أن ذلك لم يصلوا إليه بعد .

بيد أن ابن كثير نفسه قد صرح ـ في ذات المواطن من تفسيره — بأن الامام البخاري رضي الله عنه قد ذهب إلى أن هؤلاء كانوا منافقين يظهرون الايمان وليسوا كذلك . كما ذكر أنه روى عن الأئمة سعيد بن جبير ومجاهد وابن زيد : أنهم قالوا في قوله : « ولكن قولوا أسلمنا ،أي: استسلمنا خوف القتل والسباء (٢) أ . هـ . والأظهر المصرح به من أعلام المفسرين كالقرطبي والبيضاوي والالوسي وغيرهم أنهم قبل دخولهم في الإيمان — من بعد — كانوا مستسلمين في الظاهر نفاقا ، بدليل منهم بالإيمان على الرسول ﷺ بإسلامهم ، كما أن تفسير البيضاوي وأبي السعود

---

(١) نفس المصدر ٧ / ٣٦٧ .

(٢) انظر تفسير بن كثير : ٣٦٨/٧ .

والآلوسى (١) وغيرهم لقوله تعالى بعد : « وإن تطيعوا الله ورسوله » : هو قولهم : ـ بالاخلاص وترك النفاق . فإن تفسير الطاعة بالاخلاص وترك النفاق دال على خلو هؤلاء من الاخلاص وعلى تحققهم بالنفاق وإذا فقوله سبحانه . « وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً » . فتح من الله تعالى ورسوله ﷺ لباب الإيمان والتوبة لهم كى يكونوا مسلمين مؤمنين متقبلة أعمالهم . ولذا فسر أبو حيان قوله تعالى « وإن تطيعوا الله ورسوله » بقوله . بالإيمان والأعمال وهذا فتح لباب التوبة(٢) اهـ

فطاعة الله ورسوله ـ ﷺ ـ . إنما تكون بتحقيق الإيمان أولا وأساسا ثم يلبنى عليه العمل الصالح .

وقوله تعالى : « لا يلتكم » بمعنى لا ينقصكم ، فالفعل من : لات يليت ، إذا نقص وهو لغة الحجاز والفعل فيها أجوف . ومنه ما حكى الأصمعى عن أم هشام السلولية من قولها : « الحمد لله الذى لا يفات ولا يلات ولا تصمه الأصوات » ذكره الآلوسى رضى الله عنه .

وقرأ أبو عمرو : « لا يألتكم » ـ بالهمز وفتح اللام ـ اعتبارا منه فى ذلك بقوله تعالى « وما ألتناهم من عملهم من شىء » (٣) وهى لغة غطفان

---

(١) أنظر تفسير البيضاوى بحاشية الشهاب ٨٢/٨ وتفسير أبى السعود بهامش مفاتيح الغيب ٧٥٧/٧ وأنظر روح المعانى ١٦٨/٢٦

(٢) أنظر البحر المحيط : ١١٧/٨

(٣) سورة الطور / ٢١

وأسد . والقراءتان سبعيتان (١) وبتفسير الليث بالنقص: قال مجاهد رضى الله عنه ، والمعنى على ذلك : لا ينقصكم من ثوابها شيئاً .

اما قتادة ـ رضى الله عنه ـ فقد فسر الليت بالظلم ، حيث ذكر أن المعنى : لن يظلمكم من أعمالكم شيئاً . (٢) ومفاده : أنه تعالى شأنه يعطيكم ما تتوقعون بأعمالكم من غير نقص (٣) .

ويقول الإمام الفخر ـ قدس الله سره ـ : « وفيه تحريض على الإيمان الصادق ، لأن من أتى بفعل من غير صدق نية . يضيع عمله ولا يعطى عليه أجرا ، فقال . إن تطيعوا وتصدقوا لا ينقص عليكم . فلا تضيعوا أعمالكم بعدم الاخلاص .. » (٤) .

ثم ختم سبحانه هذه الآية الكريمة بخير ختام إذ قال جل شأنه . « إن الله غفور رحيم » .

وقد روى فى تفسيره عن قتادة ـ رضى الله عنه ـ أنه قال . « غفور للذنوب الكثيرة أو الكبيرة (٥) ـ رحيم بعباده » .

---

(١) أنظر تفسير الطبرى ٢٦ / ١٤٢ ط الحلبى وأنظر حاشية الشهاب ٨ / ٨٣ وأنظر روح المعانى ٢٦/١٦٨ .

(٢) أنظر تفسير الطبرى ٢٦/١٤٣ ط الحلبى

(٣) أنظر مفاتيح الغيب : ٧/٥٨٥

(٤) أنظر نفس المصدر .

(٥) شك من الراوى كما ذكره الطبرى ـ فى روايته عن قتادة ـ فى تفسيره جامع البيان ٢٦ / ١٤٤

وقد وجه الإمام الطبرى ـ رضوان عليه ـ هذا التذييل الذى ختمت به الآية الكريمة وفقا لمساق الآية الكريمة فقال: «يقول تعالى ذكره: إن الله ذو عفو أيها الأعراب لمن أطاعه وتاب إليه من سالف ذنوبه، فأطيعوه، وانتهوا إلى أمره ونهيه، يغفر لكم ذنوبكم ورحيم، بخلقه التائبين إليه أن يعاقبهم بعد توبتهم من ذنوبهم على ماتابوا منه، فتوبوا إليه يرحمكم»(١).

ومع هذا التوجيه السديد: فإن المدى الذى يشمله هذا التذييل عام للأعراب ولغيرهم كما يشعره حذف متعلق الغفران والرحمة من العموم الذى نرجو من الله تعالى أن ندخل فى حيازته واحاطته ابتداء بلا سبق عصيان ولاتقدم مؤاخذة على تقصير أو نقصان، بمحض تفضل الرحيم الرحمن ذى المن والكرم والإحسان.

ثم قال تعالى ذكره وتبارك اسمه: —

— (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون) —

° ° °

ومناسبة هذه الآية الكريمة لما قبلها: أنه تعالى لما نفى الإيمان عن الأعراب فى الآية الكريمة السابقة: أشار ـ هنا ـ إلى مايوجب نفيه عنهم، وبين لهم ولغيرهم حقيقة الإيمان وفيمن يتحقق؟؟ ومن يصح انتفاؤه بلا نكران؟؟ وعلى من يصدق صدق الإيمان(٢) وقد قدم ـ سبحانه

---

(١) أنظر: جامع البيان ٢٦/١٤٤

(٢) أنظر: مفاتيح الغيب ٧/٥٨٥ وأنظر أيضا حاشية الشيخ زاده على تفسير البيضاوى ٤/٣٧٦

وتعالى — فى هذه الآية الكريمة : المقياس القرآنى الذى يقاس به مدى تحقق الإيمان فى ذات كل مؤمن . وهو أحد المقاييس الحصرية الإيمانية التى وردت فى التنزيل الحكيم (١)

ويقوم هذا المقياس الإيمانى على دعامات أربع وهى : ـ

١ — الإيمان بالله تعالى إيمانا جازما .

٢ — الإيمان برسول الله ﷺ وبما علم مجيئه به من الدين بالضرورة .

٣ — الإيقان وعدم الارتياب أو الشك فى الإيمان بدءا واستمرارا .

٤ — الجهاد بالمال وبالنفس فى سبيل الله تعالى وطلبا لمرضاته سبحانه .

وهذا المقياس الإيمانى من النوع الحصرى، لأنه مصدر بأداة الحصر والاختصاص : « إنما » ، كما ختم كذلك بطريقين آخرين من طرق الحصر وهما : تعريف الطرفين ، وضمير الفصل « هم » فى قوله تعالى : « أولئك هم الصادقون » .

فى أول الآية الكريمة : قصر الإيمان على الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا .. إلخ ولتضمن هذا المقياس الحصرى الإيمان لتلك الركائز الأربع التى تنتظم التصديق الجازم مع الجهاد بالمال وبالنفس فى سبيل الله ـ بما يتضمنه الجهاد من الإتيان بالواجبات والتحرز عن المنهيات قولا وفعلا واعتقادا ـ كان هذا المقياس منبئاً عن شمول حقيقة الإيمان الكاملة للاعتقادات والأقوال والأفعال كما جاء فى الحديث الشريف الذى أخرجه

(١) أنظر مبحث « مقاييس الإيمان وصفات المؤمنين » فى كتابنا : قصد السبيل ج ١ ص ١٨١ — ٢١٢ .

ابن ماجه وابن مردوية والطبرانى والبيهقى - فى شعب الإيمان - عن سيدنا على بن أبى طالب كرم الله تعالى وجهه أنه قال : -

قال رسول الله ﷺ : - «الإيمان : معرفة بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالأركان» (١)

والإيمان بالرسول ﷺ مستلزم للإيمان بكل مابلغه عن ربه تعالى ولا يكمل الإيمان به ﷺ إلا بصدق متابعته فى سنته الغراء والوفاء بحقوقه ﷺ التى أوردناها فى صدر تفسير السورة الكريمة .

وأما قوله تعالى : «ثم لم يرتابوا» فإنه بمعنى «ثم لم يشكوا شكا مصحوبا بتهمة فالريب «هو الشك مع التهمة» فيقال «رابه» (٢)، إذا أوقعه فى الشك فيما صدقه وآمن به ، وفى الاتهام لمن صدقه ، فالشك «فى الخبر» ، والتهمة «فى المخبر» بأن ينسب تهمة الكذب إليه بعد ماصدقه واعترف بأن ماقاله حق .

فمفاد قوله سبحانه «ثم لم يرتابوا» أن المؤمن إنما يكون مؤمنا

---

(١) أنظر تخريج الحديث الشريف فى الجامع الكبير للإمام السيوطى ١/٣٦٩- عن طريق سيدنا على - مرة - وبإسناد عن السيدة عائشة رضى الله عنها مرة أخرى ، كما خرجه فى الدر المنثور ٦/١٠٠ وأنظر سنن ابن ماجه ١/٢٥ .

(٢) قال الراغب فى مفرداته (ص ٢٠٥) : «... يقال : رابنى كذا وأرابنى، فالريب : أن تتوهم بالشىء أمرا ما ، فينكشف عما تتوهمه ...» ، كما ذكر فى ذات الموطن : أن الارتياب يجرى مجرى الارابة : أم

بأن يبلغ بتصديقه درجة اليقين بحيث لا يطرأ عليه الشك والاتهام بتشكيك المشكك فيما يستقبل من الزمان (١) .

وهنا : يطرح سؤال هام : ـــ

كيف عبر فى هذه الجملة بثم التى تقتضى التراخى مع أن انتفاء الريب يجب أن يكون مقارن الإيمان ، فكيف جعل متراخيا عنه ؟؟

والجواب ، من ثلاثة وجوه . ـ

أولها . أن يقال : إن التراخى من ترتيب الكلام لا من ترتيب الزمان ـ كما ذكره أبو حيان ـ على معنى . ثم أقول : لم يرتابوا (٢) .

أو على حد تعبير الإمام الفخر : « . . وثم : للتراخى فى الحكاية ، كأنه يقول : آمنوا . . ثم أقول شيئاً آخر : ـــ لم يرتابوا (٣) .

وثانيها . أن يعتبر التراخى الزمانى ، على معنى : استمرار انتفاء الريب فيما يتراخى من الأزمنة عند اعتراء الشبه ، فالارتياب منفك عنهم بدءا واستمرارا ، كأنه يقول : آمنوا ثم لم يعترهم ما يعترى ضعفاء الإيمان بعد حين من الارتياب عند حدوث شبهة ، فهم الثابتون على قوة الإيمان رغم

---

(١) أنظر : حاشية العلامة محيى الدين زاده على تفسير البيضاوى ٤ / ٣٧٦ ، وحاشية الشهاب ٨/ ٨٣ .

(٢) أنظر : تفسير : البحر المحيط لابى حيان ٨/ ١١٧ .

(٣) أنظر مفاتيح الغيب ٧/ ٥٨٥

حدوث الشبه وتراخى الأزمان (١)، وهذا كقوله سبحانه . إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا . . . (٢)

وثالثها . أن يعتبر التراخى الرتبى ، على معنى . أنهم جمعوا بين رتبة الإيمان الخالى من الريب أولا وبين رتبة أعلا وهى الثبات على الإيمان بلا ارتياب بعد طريان الشبه وتشكيك المشكك ثانياً ، ولاريب أن الثبات على الشيء — لاسيما بعد عروض الابتلاء فيه — أعظم رتبة من ايجاده . فلذا عبر بثم المفيدة للتراخى الرتبى (٣) .

وأما قوله تعالى . « وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله » . فإنه العنصر الإيمانى الرابع — فى الآية الكريمة — المنتظم لجميع العبادات والطاعات بأسرها على اختلاف ضروبها وأصنافها .

يقول الراغب — رحمه الله — فى مفرداته . — « والجهاد والمجاهدة ، استفراغ الوسع فى مدافعة العدو ، والجهاد ثلاثة أضرب . —

مجاهدة العدو الظاهر ، ومجاهدة الشيطان ، ومجاهدة النفس ، وتدخل ثلاثتها فى قوله تعالى . « وجاهدوا فى الله حق جهاده » (٤) ، « وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله » (٥)

---

(١) أنظر : تفسير الكشاف ٥٧١/٣ وحاشية الشهاب على البيضاوى ٨٣/٨ وروح المعانى ١٦٨/٢٦ .

(٢) سورة فصلت / ٣٠

(٣) أنظر حاشية الشهاب ٨ / ٨٣

(٤) سورة الحج / ٧٨

(٥) سورة التوبة / ٤١

« إن الذين آمنوا وهاجروا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله . . (١) »

أ هـ (٢) فالمراد بالجهاد فى سبيل الله — ههنا — : الجهاد فى طاعته تعالى ، فليس المراد بسبيل الله خصوص الغزو ، بل ما يعم العبادات والطاعات كلها ، لأنها فى سبيله وجهته .

فالمجاهدة بالأموال : تشمل العبادات المالية كالزكاة والانفاق فى سبيل الله بجميع وجوهه والمجاهدة بالأنفس . تشمل العبادات البدنية كالصلاة والصيام ونحوهما .

وإنما قدم الجهاد بالأموال على الجهاد بالأنفس : لحرص الانسان عليها ، فقد قيل : إن مال الانسان شقيق روحه .

وإنما حذف مفعول « جاهدوا » إما لتنزيله منزلة اللازم ، فيكون بمعنى : بذلوا الجهد وإما مفعوله مقدر ، تقديره : العدو ، أو الشيطان ، أو النفس ، أو الهوى .

ثم ختم الله سبحانه هذه الآية الكريمة بقوله « أولئك هم الصادقون » فقصر الصدق فى ادعاء الإيمان عليهم قصر إفراد وتكذيب لأعراب بنى أسد الذين اعتقدوا الشركة فى صدق دعوى الإيمان . وقد روى الإمام أحمد بسنده عن أبى سعيد أن النبى ﷺ قال : « المؤمنون فى الدنيا على ثلاثة أجزاء . الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، والذى يأمنه الناس على أموالهم وأنفسهم ثم الذى إذا أشرف على طمع تركه لله عز وجل » (٣) .

---

(١) سورة الأنفال / ٧٢

(٢) أنظر المفردات : ص / ١٠١

(٣) أنظر المسند للامام أحمد رضى الله عنه : ٣/٨ وتفسير ابن كثير ٣٦٩/٧ ،

ثم قال تعالى شأنه . —

(قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض والله بكل شيء عليم)

وهذه الآية الكريمة متممة لسابقتيها ، فقد ذكر الأئمة : القرطبى والخازن والآلوسى رضوان الله عليهم أجمعين . أنه لما نزلت هاتان الآيتان (١) السابقتان : جاء الأعراب وحلفوا أنهم مؤمنون فى السر والعلانية ، وكذبوا ، فنزلت (٢) .

والهمزة فى قوله تعالى . « أتعلمون » . . للانكار التوبيخى ، فالكلام تجهيل وتوبيخ لأولئك الأعراب والفعل « أتعلمون » . مضعف . (علم) بمعنى : شعر وهذا يرجع فى المعنى إلى قولهم علم . بمعنى عرف ، فيتعدى الفعل لمفعل واحد فقط وبواسطة التضعيف - كما هنا - يتعدى لاثنين أولهما بنفسه والثانى بحرف الجر ، لأنه بمعنى الإعلام والأخبار .

وقيل . أن الفعل قد تعدى به ، لتضمين معنى الاحاطة أو الشعور . فيفيد المبالغة من حيث أنه جار مجرى المحسوس (٣) .

---

(١) نص تعبير الخازن كما نقل فى حاشية الجمل على الجلالين (٤ / ١٨٧) : « فلما نزلت هاتان الآيتان أتت الأعراب رسول الله ﷺ يحلفون أنهم مؤمنون صادقون وعرف الله منهم غير ذلك ، فأنزل الله . قل أتعلمون الله بدينكم . . الآية » أ ه

(٢) أنظر . تفسير القرطبى ٣٤٩/١٦ - ٣٥٠ وأنظر . روح المعانى ١٦٩/٢٦ وتفسير البيضاوى ٢ / ٣٢٧

(٣) أنظر . حاشية الشهاب على البيضاوى : ٨ / ٨٣ وتفسير الآلوسى ٢٦ / ١٦٩ وحاشية الجمل على الجلالين ٤ / ١٨٧ .

والمعنى : أتشعرونه تعالى وتخبرونه بما أنتم عليه بقولكم (آمنا) والحال أنه سبحانه يعلم ما فى السموات وما فى والأرض ؟

ومن ثم : أفاد الاستفهام التوبيخى المسلط على فعل الإعلام المضمن معنى الإحاطة والإشعار بالخصوص ، مع ما فيه من التضعيف(١)، مع تقييد مفعوله بالجملة الحالية المفيدة لإحاطة علمه تعالى بكل ما فى السموات والأرض ، مع التذييل الآتى — أفاد كل ذلك — غاية التشنيع والتجهيل والتوبيخ لأولئك الذين ظنوا أمرهم يخفى على الله تعالى .

وأما قوله تعالى : « والله بكل شىء عليم » : فإنه تذييل مقرر لما قبله بإفادته للمبالغة والتعميم، حيث أفاد أنه تعالى مبالغ فى العلم بجميع الأشياء التى يدخل فى ضمنها ما أخفوه من الكفر عند إظهارهم الإيمان(٢)

ثم قال تعالى شأنه وتبارك اسمه .

— (يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان ان كنتم صادقين)

والضمير فى « يمنون » للأعراب المتقدم ذكرهم .

وقد أخرج النسائى والبزار وغيرهما — عن الإمام ابن عباس رضى الله عنهما - أنه قال .

« جاءت بنو أسد إلى رسول ﷺ فقالوا . يارسول الله ، أسلمنا ،

---

(١) لعل هذا التضعيف فى الفعل للتعبير عن مبالغتهم فى تأكيد الاخبار بإيمانهم بالحلف ونحوه كما أفاده سبب النزول .

(٢) أنظر تفسير أبى السعود — بهامش مفاتيح الغيب - ٧/٧٥٨

وقاتلك العرب ، ولم تقاتلك ، فقال رسول الله ﷺ : إن فقههم قليل وإن الشيطان لينطق على ألسنتهم ، ونزلت هذه الآية : « يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا على إسلامكم . بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين » (١) .

وقوله تعالى : « يمنون عليك أن أسلموا » بمعنى : يعتدون إسلامهم عليك منة . والمنة : مأخوذة من المن، وهو القطع ، لأن المقصود بها قد قطع حاجته ، وتطلق على معنيين : أولهما : النعمة التى لا يستثيب مسديها عن يزلها إليه (٢) وثانيهما . النعمة الثقيلة (٣) وثقلها : عظمها ، أو المشقة فى حملها (٤).

ويطلق (المن) كذلك على وجهين :

أحدهما : إسداء المنة — بالفعل — فيقال : من فلان على فلان ، إذا أثقله بالنعمة وهذا الضرب على الحقيقة لا يكون إلا لله تعالى ، ومنه قوله

---

(١) أنظر الدر المنثور : ١٠٠/٦ ، وتفسير ابن كثير : ٣٦٩/٧

(٢) المعنى : هى النعمة التى لا يطلب معطيها ثوابا ممن يعطيها له ، فقال : أزل إليه نعمة ، أى أسداها . أنظر الكشاف ٥٧١/٣ ، وحاشية الشهاب ٨٣/٨

(٣) ذكر البيضاوى أن المنة — بمعنى النعمة الثقيلة — مأخوذة من المن ، وهو ما يوزن به وعليه . يكون تفسيرها بالنعمة الثقيلة ، لاستشعار معنى الوزن فيها ، وفى المفردات (ص٤٧٤) : « ويقال لما يقدر : ممنون ، كما يقال : موزون » ، وحينئذ : يضاف فى معنى المنة : معنى العظم والثقل إلى معنى قطع الحاجة

(٤) أنظر حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى ٨٣/٨

سبحانه : « لقد من الله على المؤمنين ... »(١) .

وثانيهما: اعتداد المنة — بالقول ـ وذلك مستقبح بين الناس إلا عند كفران النعمة ، ولقبح ذلك قيل : المنة تهدم الصنيعة ، ولحسن ذكرها عند الكفران قيل : إذا كفرت النعمة حسنت المنة ، وقد ذكر أهل اللغة أن المنة ـ التى هى بالقول — مأخوذة من القطع ، لأنها تقطع النعمة وتقتضى قطع الشكر (٢) .

وقد تمثل الوجهان ههنا فى قوله تعالى : « يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم . . » حيث أن المنة منهم بالقول ، ومنه الله عليكم بالفعل وهو هدايته تعالى اياهم بالمعنى الذى سيبين بعد .

وقوله تعالى « أن أسلموا » فى موضع المفعول — ليمنون (٣) — ، لتضمينه معنى الاعتداد أو : هو مصدر منصوب على نزع الخافض أو مجرور بحرف جر مقدر ، على معنى : يمنون عليك بإسلامهم (٤) .

ويقال مثل ذلك فى قوله تعالى : « قل لا تمنوا على إسلامكم » فمعناه :

---

(١) سورة آل عمران / ١٦٤

(٢) أنظر المفردات للراغب ص : ٤٧٤

(٣) ولذلك تعدى إليه الفعل فى قوله تعالى « قل لا تمنوا على إسلامكم ... » كما ذكر أبو حيان .

(٤) وذكر أبو حيان (فى البحر المحيط ١١٧/٨) وجها آخر فى « أن أسلموا » وهو أن يكون مفعولا لأجله والمعنى : يتفضلون عليك بإسلامهم ؛ أى : لأجل إسلامهم .

إما على تقدير : لاتعتدوا إسلامكم منه على . وإما بتقدير : لاتمنوا على بإسلامكم ، أي الذي زعمتموه إسلاما ، ولذا أضيف إليهم .

وأما قوله تعالى : « بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان » فمفاده :لامنة لكم بل المنة لله ولرسوله عليكم لهدايتهم لكم للإيمان .

وهنا ملحظ لطيف للإمام الفخر ـ قدس الله سره ـ إذ يقول : « لم يقل : يمن عليكم أن أسلمتم بل قال : أن هداكم للإيمان ، لأن إسلامهم كان ضلالة حيث كان نفاقا ، فما من به عليهم .

ثم يتساءل الفخر قائلا : ـ

« فإن قيل : كيف من عليهم بالهداية إلى الإيمان مع أنه بين أنهم لم يؤمنوا ؟؟

نقول : الجواب عنه من ثلاثة أوجه : ـ

أحدها : أنه تعالى لم يقل : بل الله يمن عليكم أن رزقكم الإيمان ، بل قال : أن هداكم للإيمان . وإرسال الرسل بالآيات البينات هداية .

ثانيا : هو أنه تعالى يمن عليهم بما زعموا ، فكأنه قال : أنتم قلتم آمنا فذلك نعمة فى حقكم حيث تخلصتم من النار ، فقال : هداكم فى زعمكم .

ثالثها ـ وهو الأصح ـ هو أن الله تعالى بين بعد ذلك شرطا فقال : « إن كنتم صادقين » أه (١) وجواب الشرط محذوف ، لدلالة ماقبله عليه

---

(١) أنظر مفاتيح الغيب ٥٨٦/٧

وتقديره : إن كنتم صادقين فى ادعائكم الإيمان فلله المنة عليكم (١) . وهذا على أن الاهتداء بمعناه لا بمعنى الدلالة كما تقدم فى كلام الإمام الفخر الرازى ، أما على أنه بمعنى الدلالة . فلا يلزم تقدير الجواب من لفظ ماقبله بعينه — كما قدره الزمخشرى — بل يكون متعلق الصدق هو ادعاء الإيمان لا الهداية (٢) .

ثم جاءت الآية الكريمة الخاتمة . .

— (إن الله يعلم غيب السموات والأرض والله بصير بما تعملون) —

فجاء فيها تمام الحسن فى التذييل المحكم المفيد لإحاطة علمه تعالى وهيمنته ورقابته على جميع مخلوقاته وعلى نفاذ علمه سبحانه لكل خفى مهما بطن .

فأفاد حسن الختام أنه تعالى يعلم كل مستتر فى العالم مهما غاب عن إدراك الخلق ، ويبصر كل عمل يعملونه فى سرهم وعلانيتهم لاتخفى عليه — سبحانه — منه خافية ، فكيف يخفى عليه ما فى ضمائركم ولا يظهر على صدقكم وكذبكم ؟؟

وقراءة ابن كثير بالياء « يعملون » لما فى الآية الكريمة من ذكره هؤلاء بضمير الغيبة عن النبى ﷺ . وفى ذلك تمام الاشارة لبعدهم وغيبتهم وحضوره ﷺ وإطلاع الله تعالى له ولخواص عباده من أمته ﷺ على ماشاء من غيبه (٣) .

---

(١) أنظر تفسير الكشاف للزمخشرى ٥٧٢/٣ ط/ الحلبى

(٢) أنظر حاشية الشهاب على البيضاوى ٨٣/٨

(٣) أنظر روح المعانى ١٧٠/٢٦

وهكذا يلتئم آخر السورة الكريمة مع أولها (. . لاتقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم .) فى إفادة الرقابة الإلهيه على عمل العبد سره وجهره وما يوحيه ذلك من الترهيب والتحذير والحث على تقواه سبحانه كأنه يقول :

واتقوا الله فأنه لا يخفى عليه سر فلا تتركوا خوفه فى السر ، ولا يخفى عليه علن فلا تأمنوه فى العلن .

اللهم اجعلنا بحق كتابك العزيز ونبيك الحبيب سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم من عبادك الاتقياء الأوفياء فى الدنيا والآخرة وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ؟

✡ ✡ ✡

فهرست المراجع

١ ـــ القرآن الكريم

٢ ـــ الإتقان فى علوم القرآن للامام السيوطى بتحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم (ط / المشهد الحسينى بالقاهرة)

٣ ـــ إحياء علوم الدين للإمام أبى حامد الغزالى (ط / التجارية)

٤ ـــ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم . (تفسير الامام أبى السعود العمادى) بهامش مفاتيح الغيب للامام الرازى (ط / الشرفية)

٥ ـــ أسباب نزول القرآن لأبى الحسن الواحدى بتحقيق السيد أحمد صقر نشر دار الكتاب الجديد

٦ ـــ أنوار التنزيل وأسرار التأويل (تفسير القاضى البيضاوى) ط / مصطفى الحلبى .

٧ ـــ البحر المحيط (تفسير أبى حيان الأندلسى) ط / السعادة ، نشر مكتبة النصر الحديثة بالرياض

٨ ـــ بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز لمجد الدين الفيروز أبادى (نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية)

٩ ـــ تدبر أسرار التنزيل للدكتور جوده محمد أبو يزيد المهدى (نشر مكتبة تاج بطنطا)

١٠ ـــ تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير (ط / الشعب)

١١ ـــ جامع البيان (تفسير الإمام الطبرى) ط / الحلبى

١٢ — الجامع الصحيح المسند لأبي عبد الله محمد بن اسماعيل البخـــارى (ط محمد عبد اللطيف حجازى)

١٣ — الجامع الصحيح لأبي عيسى الترمذى بتحقيق الشيخ أحمد شاكر وآخرين (ط / الحلبي

١٤ — الجامع لأحكام القرآن (تفسير الإمام القرطبي) ط دار الكتب

١٥ — حاشية العلامة سليمان الجمل على تفسير الجلالين (ط التجارية)

١٦ — حاشية الشيخ زادة على تفسير البيضاوى (نشر المكتبة الاسلامية بتركيا)

١٧ — الدر المنثور فى التفسير بالمأثور للامام السيوطى (نشر دار المعرفة بلبنان

١٨ — دلائل الاعجاز للامام عبد القاهر الجرجانى (إصدار دار المنار سنة ١٣٧٢ هـ)

١٩ — روح المعانى (تفســـير الامام شهاب الدين الألوسى) نشر إدارة الطباعة المنيرية .

٢٠ — سنن ابن ماجه . بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقى (ط عيسى الحلبى)

٢١ — سنن أبى داود بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد (ط التجارية)

٢٢ — سنن النسائى (ط المطبعة المصرية) ونشر المكتبة التجارية

٢٣ — الشفا فى التعريف بحقوق المصطفى (ﷺ) للقاضى عياض بتحقيق على البجاوى (ط عيسى الحلبى)

٢٤ — صحيح مسلم بشرح الامام النووى (ط / المطبعة المصرية)

٢٥ — عناية القاضى وكفاية الراضى (حاشية الشهاب على البيضـــاوى) نشر دار صادر بيروت

٢٦ — الفتح الكبير فى ضم الزيادة إلى الجامع الصغير للامام يوسف النبهانى (ط / الحلبى)

٢٧ — قصد السبيل فى التفسير الموضوعى لآى التنزيل للدكتور جوده محمد أبو يزيد المهدى (ط / دار الطباعة المحدية بالقاهرة)

٢٨ — الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل (تفسير الإمام الزمخشرى) ط / مصطفى الحلبى

٢٩ — كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال للعلامة علاء الدين على المتقى الهندى (نشر مؤسسة الرسالة ببيروت)

٣٠ — لسان العرب لابن منظـــور (نشر : الدار المصرية للتأليف والترجمة)

٣١ — لوامع البينات شرح أسماء الله تعالى والصفات للامام فخر الدين الرازى (نشر . مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة)

٣٢ — المستدرك على الصحيحين لأبى عبد الله (الحاكم) النيسابورى (نشر مكتبة النصر الحديثة بالرياض)

٣٣ — المسند للامام أحمد بن حنبل (نشر : دار صادر بيروت)

٢٤ — المغنى عن حمل الأسفار فى الأسفار فى تخريج ما فى الاحياء من الأخبار للعلامة زين الدين العراقى (بذيل : إحياء علوم الدين للامام الغـــزالى ط / التجارية)

٢٥ — مفاتيح الغيب (تفسير الامام فخر الدين الرازى) ط / الشرفية .

٢٦ — المفردات فى غريب القرآن للراغب الاصفهانى بتحقيق محمد سيد كيلانى (ط / الحلبى) .

❊ ❊ ❊

وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون



المضمون	رقم الصفحة
ويتضمن ذكر سبب النزول ودلالة النداء الإيماني ثم بيان معنى التقوى في اللغة وفي عرف الشرع ، واستجماع صدر السورة لمقومات الولاية ثم بيان إحاطة الرقابة الالهية بجوانب التكليف للعباد .	
تفسير قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي »	٦٤ — ٧٠
أدلة وجوب الأدب مع النبي ﷺ باستصحاب لفظ السيادة مع اسمه الشريف وعدم مخاطبته باسمه مجردا أو بكنيته وكذا التأدب عند قبره	٦٧ — ٦٨
بعض مظاهر الأثر العلمي لنزول هذه الآية الكريمة في الصحابة الكرام	٦٩ — ٧٠
تفسير قوله تعالى : « إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله . . . الآية .	٧١ — ٧٦
وجوه تفسير قوله تعالى « أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى	٧٣ — ٧٥
تفسير قوله تعالى : « إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون »	٧٦ — ٧٩
وصف حجرات نساء النبي ﷺ	٧٨
تفسير قوله تعالى : « ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم . . . الآية	٧٩ — ٨٠
مثل رائع من أدب الصحابة مع علمائهم رضى الله عنهم	٨٠

فهرست مضامين الكتاب

المضمون	رقم الصفحة
مقـدمة	٣ — ٦
سورة الحجرات	٧ — ٨
بين يدى التفسير : تقديم وتعريف	٩ — ١٠
عرض موضوعى لمقاصد وأهداف السورة الكريمة	١٠ — ١٤
الهدف الرئيسى والمحور الموضوعى للسورة الكريمة وما يتوط به من موضوعات	١٥ — ١٨
بيان الأسس التى تنبنى عليها علاقة المؤمن بربه تعالى	١٨ — ٢١
بيان الركائز التى تقوم عليها علاقة المؤمن بالرسول الأعظم ﷺ	٢٢ — ٢٤
بيان الأسس والركائز التى تنبنى عليها علاقة المؤمن بإخوانه فى الإيمان	٢٥ — ٢٨
تجسيد الامام فخر الدين الرازى للبناء الموضوعى وجوانبه فى السورة الكريمة	٢٩ — ٣١

« التفسير التحليلى للسورة الكريمة »

المضمون	رقم الصفحة
تفسير البسملة : ويتضمن آراء العلماء فى عدها آية أول كل سورة عدا التوبة ، وشرح الأسماء الثلاثة الحسنى مع بيان مآخذها الاشتقاقية والموازنة بين مدلولى (الرحمن) ، (الرحيم)	٣٣ — ٥٧
تفسير قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله . . .	٥٧ — ٦٤

المضمـــــون	رقم الصفحة

مناظرة الامام مالك رضى الله عنه وأبى جعفر المنصور فى التوسل بالنبى ﷺ والتشفع به إلى الله عز وجل وإستقبال قبره ٨١ — ٨٢

تفسير قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا . . . » الآية ٨٢ — ٨٧

استدلال علماء الأصول بالآية الكريمة على جواز قبول خبر الواحد وعدم قبول شهادة الفاسق ٨٥ — ٨٦

تفسير قوله تعالى : « واعلموا أن فيكم رسول الله . . . » الآية ويتضمن علاقة الآية الكريمة بسابقتها وإبراز المعطيات اللغوية لمفرداتها والمضامين التحليلية لمعانى جملها وربط ختام الآية الكريمة بصدرها ، وإبرازها لمعالم المجتمع الراشد ٨٧ — ٩٣

تفسير قوله تعالى : « فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم » : ويتضمن : الرد على المعتزلة فى قولهم بخلق العبد بإرادته واختياره لأفعاله ، وبيان مدلولى : الفضل والنعمة والفرق بينهما ، ومناسبة ختام الآية لبدء سابقتها ٩٤ — ٩٥

تفسير قوله سبحانه : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا . . . » الآية ، ويتضمن : علاقتها بما قبلها ، وسبب نزولها ، وبيان مدلولات مفرداتها ، وأحكام معاملة البغاة فى الشرع وكيفية الإصلاح بينهم . وبيان وجوب الكف عما شجر بين الصحابة ٩٦ — ١٠٥

المضمـــون	رقم الصفحة
تفسير قوله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة . . . » الآية الكريمة ويتضمن : بيان ارتباطها بسابقتها ، وبيان المقارنة بين أخوة الدين وأخوة النسب وإبراز حقوق الأخوة فى الإسلام وبيان علاقتها بالأمر بتقوى الله	١٠٥ — ١٠٩
تفسير قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم . . . » الآية الكريمة . ويتضمن : صلتها بما قبلهـــا وأسباب نزولها ، وبيان أقوال العلماء فى مدلولات مفرداتها وتحليل تراكيبها والاستدلال لمطالبها بنصوص السنة الشريفة	١٠٩ — ١٣٠
تفسير قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن . . . » الآية الكريمة ويتضمن : ربطها بسابقتها وسبب نزولها ، وبيان الظن وأقسامه وحكم كل قسم وبيان التجسس وأدلة تحريمه ، ثم بيان معنى الغيبة وأدلة تحريمها ، ثم بيان الأحوال التى تباح أو تجب فيها الغيبة شرعاً ، وإبراز وجوه المبالغات الواردة فى الآية فى تقبيح الاغتياب	١٣٠ — ١٤٢
تفسير قوله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى . . . » الآية الكريمة ويشمل مناسبتها لما قبلها، وسبب نزولها ، وتقريرها لعدم جواز التفاخر بغـــير التقوى وترسيخها لمبدأ المساواة فى الأصل ، وبيـــان حقيقة التقوى ومراتبها ومترتباتها	١٤٢ — ١٦٢

المضمـــون	رقم الصفحة
تفسير قوله تعالى : « قالت الأعراب آمنا ... » الآية الكريمة ويتضمن : — مناسبتها لسابقتها ، وسبب نزولها وإبراز خصائص التعبير القرآنى فى الآية الكريمة وما حواه من أسرار بلاغية كاللف والنشر والاحتباك ونحوهما ، وبيان علاقة الإيمان بالإسلام من جهتى التحديد العرفى والحقيقة الشرعية وأقوال المذاهب	١٦٢ — ١٧٤
تفسير قوله تعالى : «إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله...» الآية الكريمة : ويتضمن المناسبة ، وبيان المقياس الإيمانى فيها ودعائمه الأربع ، وأسرار التعبير فيها	١٧٤ — ١٧٩
تفسير قوله تعالى : « قل أتعلمون الله بدينكم .. » الآية الكريمة ويشمل : بيان علاقتها بسابقتها ، ومعنى الاستفهام فيها ، وبيان الاحاطة العلمية لجناب الحق تعالى بكل شىء	١٨٠ — ١٨١
تفسير قوله تعالى : « يمنون عليك أن أسلموا .. » الآية الكريمة وضمنه : سبب نزولها ، وبيان معنى المنة والمن ، ووجه منه تعالى عليهم بالهداية إلى الايمان مع كونهم لم يؤمنوا ، وبيان متعلق صدقهم فى الآية	١٨١ — ١٨٥
تفسير قوله تعالى : « إن الله يعلم غيب السموات والأرض ... » الآية الكريمة ويتضمن : بيان ما فيها من تمام الحسن فى التزييل المفيد لإحاطة علمه تعالى وهيمنته ورقابته على جميع مخلوقاته ، وبيان علاقة ختام السورة الكريمة بفاتحتها .	١٨٥ — ١٨٦
فهرست المراجع	١٨٧ — ١٩٠

والله تعالى أعلم

وصلى الله تعالى على أعظم خلقه وأشرف أنبيائه
ورسله سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه
صلاة تلحقنا بهم في زمرة ورثة
القرآن العظيم مع السابقين
المقربين
اللهم آمين يارب العالمين

رقم الايداع ١٥٨٣ / ١٩٨٤